أَشْبَاهُ الأَحِبَّاء

أشباه الأحباء

الكاتب: محمد عسران عطية

إخراج فني: الباشا عبدالباسط

رقم الإيداع: 25041 / 2019

الترقيم الدولي: 978 - 977 - 844 - 080 - 5

دار الزيات للنشر والتوزيع **:Facebook Page**

E_mail: bentelzayat1@gmail.com

Website: www.bentelzayat.tk

مجلس الإدارة / د. شاهندة الزيات

المدير العام/ أ. محمود محروس إبراهيم

01066736765 - 01011122429

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

لدار الزيات المشهرة قانونًا بسجلّ تجاريّ رقم / 49351

أشباه الأحباء

رواية

الكاتب

محمد عسران عطية

دار الزيان للنشر والتوزيع
صدق حلمك يتحقق

أشباه الأحباء

لكل واحد منا قصة عميقة؛ غارقٌ فيها، ولا أحد يعرفُ دهاليزها سواه، حياةٌ مليئة بالتفاصيل، نقابل فيها وجوهًا كثيرة وألوانًا متعددة من الخيبات تعترضُ أيامَنا .

وإن كل الأمور ممكن التعايش معها، إلا الأنانية، أنانية الأشخاص المتعدية بأضرارها على الغير، قد نحب ونعطي بنقاءٍ ووفاء، ويُرد العطاء بجفاءٍ ونكران، ومن يفعلون ذلك لا يليقُ عليهم سوى تسميتهم بِـ "أشباه الأحباء"، هذا الصنف من الأشخاص الذين نلتقي بهم ينبغي علينا عدم الإسراف في محاولة تغييرهم؛ فإنهم يرهقون الروح وليس لهم دواء.

❋ ❋ ❋

الإهداء

أهدي نجاحي الأول لكل قطرة عرق نزلت من جبين أبي، وسجادة الصلاة في غرفة أمي التي لازمتها للدعاء لي، وإخوتي الذين هونوا عليَّ الطريق كثيرًا.. إلى أسرتي التي أعول عليهم كثيرًا.. وإلى صغيري "يوسف".. أهديكم نجاحي الأول"

محمد عسران عطية

❋ ❋ ❋

من محطة ترام كامب شيزار الإسكندرية

رسالة إلى أحدهم...

لقد عاهدتني وخذلتني.

آلم تكن تعرف "إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا"؟

وأعطيتني ميثاقًا ونقضته على الرغم أنه كان " مِّيثَاقًا غَلِيظًا"؟

وأعطيتك قلبي أمانة ومشيت في يدك وأنا مغمض جفون عيني وعبثت به وضيعته، ألا تعلم أن الله أمر أن تؤدى الأمانات إلى أهلها؟

رحمك الله وغفر لك

محمد عمران عطية

أشباه الأصباء

الفصل الأول

كنت طفلًا لا يتعدى عمره السبع سنوات فكنت أصغر إخوتي وكنت مُدللًا بين الجميع.. فكانت لي أخت واحدة وأربع إخوة، فكنت لا أفارق يد أبي وكان يحبني لذكائي وابتسامتي الدائمة.. لكني كنت شقيًّا جدًّا في غيابه عن بيتنا.. فكانت أمي تمل مني بسب شقاوتي الزائدة عن حدها، وكانت دائمًا تصرخ عليَّ وتقول "يا رب هو أنا مخلفة عفريت!".. فكنت أعود من المدرسة وألقي حقيبتي بمنتصف المنزل ثم أذهب مع أولاد عمي وأقاربي لنلعب الكرة..

وبعد كل مباراة كنت أذهب إلى ترعة صغيرة في وسط القرية لأمسح ملابسي وأغسل وجهي وقدمي لكي لا يشك أحد أنني كنت خارج المنزل، وأعود دائمًا قبل عودة أبي من العمل متخفيًا ومتسللًا من باب خلفي في منزلنا لكي لا تراني أمي وتشتكي مني لأبي.. ولكن في حضرة أبي كان للبيت معنى آخر، وهدوء دائم، لا أحد يجرؤ أن يلعب أو يلهو أو يرفع صوته مثلما كان يحدث طيلة النهار في المنزل أثناء غيابه وكان

العفريت الصغير يتحول إلى حمل وديع بجوار أبيه فيشكو له تارة من أخته الكبرى وتارة أخرى من أولاد عمه.. وكان أخي الكبير دائمًا يساعد أمي في أعمال المنزل ويحبها، فكان أقربنا إليها، وكان يجلس يكتب معي أنا وإخوتي وأولاد عمي الواجب بالترتيب، فكنت دائمًا أتهرب منه فكنت لا أحب المذاكرة والواجبات أبدًا.

وكان منزلنا في قرية صغيرة في جنوب الصعيد وبالتحديد جنوب محافظة سوهاج تدعى "الباسكية" وكانت قريتنا جميلة، يعم عليها الهدوء وتمتاز بجمال الطبيعة من خضرة أراضيها وزرقة سمائها.. فكانت قرية ذهبية تمامًا مثل شمسها.. وأهلها كُرماء وبسطاء.. فهم أهل طيبة ومحبة يعيشون في وفاق وسلام متمسكون بعادتهم وتقاليدهم التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم من احترام الكبير وإعانة الضعيف وإغاثة الملهوف واحترام حقوق الجار.. فكنت تسمع في صباحها الباكر صوت تغريد الطيور وغوار الأبقار وغرير سواقيها وصياح الديكة وصوت ضحكات الفلاحين البسطاء وهم ذاهبون إلى أراضيهم، وكان النيل يلتف حولها في معظم الجهات فكانت مميزة عن جميع قرى الصعيد..

وفي يوم كُنا نجلس في شرفة منزلنا الجميلة فكانت شرفة خشبية من طراز خاص، بها كرسي مصنوع خصيصًا لي من جذع شجرة الخروب، وكانت تلك الشجرة عالية لها شموخ خاص تمامًا مثل شموخ أبي.. وكانت الشُرفة تلتف بها الورود والأزهار من جميع جوانبها.. وكان ذلك يعطيها رونقها الخاص.. وكأنك تجلس في شرفة قصر الباب العالي في مدينة إسطنبول على مضيق البسفور..

وفي يوم كان أبي يحتسي كوبًا من الشاي في الصباح الباكر ويستمع إلى إذاعة القرآن الكريم للشيخ محمد صديق المنشاوي، وكانت آيات بينات من الذكر الحكيم يرددها أبي معه وكانت تقول **"أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَـٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ"**.

وإذ بباب المنزل يدق؛ فذهبت لفتح الباب فوجدتها من أقارب أمي ومعها طفلة رضيعة تحملها على كتفها، وطفلة أخرى تُمسك بذيل فستانها لا تتعدى الثلاث سنوات، فكانت جميلة إلى حد السماء.. يتطاير شعرها الناعم الكثيف مثل ذيل الفرس الأسود تمامًا في المعركة مع هواء ديسمبر البارد.. ولها عينان صغيرتان جميلتان تلمعان تمامًا مثل كوكب

بلوتو، وفمها صغير يشبه حبة الكرز؛ وكانت قصيرة جدًّا لا يتعدى طولها السنتيمترات.. وتلبس فروًا أبيض أعتقد من كثرة جمالها أُعجب بها دب قطبي فأعطاها فروه لتدفئ به نفسها من برد ديسمبر القارص.. فدلف أقاربنا إلى البهو ثم فضلوا الجلوس بالشرفة، فرحب بهم أبي كثيرًا ونادى على أمي لترحب بأقاربها وجلست الصغيرة بجواري على الكرسي الخشبي.. وكان بيدي حصان صغير صنعته لي أمي من الصوف فأخذته مني؛ فقولت لها اسمي محمد ما اسمك؟!.. فصمتت قليلًا.. فقلت لها "محمد".. فرددت اسمي بتردد وحروف مُتلعثمة مَد أمد مَد.. فكأنها بترتني من المنتصف وكُتب في السماء أن أكون المد والعون الدائم لها، ونهضنا لنلعب سويًّا ونمسك بيد بعضنا البعض ونلتف سويًّا حتى نسقط في الأرض ونجري ونلهو لكن بحذر؛ لأني كنت أخاف من أبي كثيرًا..

ولكن منذ أن دخلت الطفلة إلى منزلنا قد جذبتني إليها كثيرًا، وعندما كنا نلعب سويًّا كنت أصبح سعيدًا جدًّا.. فكانت خفيفة الظل لها ضحكة طفولية جميلة..

وبعد أن غادرت، جلست أفكر هل ستعود لنلعب سويًّا مرة أخرى؟! أم هي آخر زيارة سأراها فيها؟!

ولكن بعد ذلك علمت بأنهم سيقيمون معنا في البلد؛ فطار قلبي إلى السماء حين علمت بذلك الخبر، وبعد ذلك ترددوا على بيتنا كثيرًا، وذهبت إليهم كثيرًا، فاشترى والدها منزلًا ليس ببعيد كثيرًا عن منزلنا ولكنه كان أصغر منه، تحيط بالمنزل حديقة صغيرة تزيد المنزل بهاءً ورونقًا..

بدأ والدها في زراعة الحديقة ببعض أشجار البرتقال والليمون.. فكانت هُناك شجيرة صغيرة لا يزيد طولها كثيرًا عن طول سما، كانت تلك شجرتنا المفضلة.. فلطالما كان لدي حلم بعيد المدى أن تكبر تلك الشجرة معنا ونعود لنقطف أول ثمارها معًا ولا يفرقنا شيء أبدًا، ثم زرع حوضًا مليئًا بالورود البلدي فواحة الرائحة.. كنا نستمتع ونحن نشارك والد سما زراعة تلك الحديقة.. فكم حلمنا بشكلها الزاهي عندما ستنضج الفواكه وتكبر تلك الورود.. فلربما نكون كبرنا حينها نحن أيضًا!

ثم أصرت والدة سما على وضع بيت صغير من الخشب في آخر تلك الحديقة.. ووضعت به بعض الدجاج وصغارهم.. وقامت بتحويله لعشة صغيرة لهم..

وكنا نذهب كُل صباح أنا وسما قبل الذهاب إلى المدرسة لإطعامهم واللهو معهم، وفي بعض الأحيان لإزعاجهم.. فلا أنسى ذلك اليوم الذي أعطيت لسما كيس الحبوب فهاجمتها الدجاجات لنيل بعض مما في الكيس.. فكانت تركض كقطة مذعورة وأنا أضحك وكأنني أمام مسرحية تُبث مباشرة من حديقة عائلة سما، ثم انتهى الأمر بعد أن قمت بإنقاذها منهم حتى لا نتأخر عن المدرسة..

وكان بيتها الصغير ذي باب خشبي وسلالم خشبية، وكنت أخاف دائمًا من مدخل منزلها، ولكن عندما كنت أنادي وتفتح هي الباب كانت تمتلكني الطمأنينة وكنا نتسابق ونأخذ الدرج كله قفزًا حتى نصل إلى غرفتها، فكنت دائمًا أتركها تسبقني حتى لا تحزن..

وفي كل مرة كنت أذهب إليهم فيها، ونتسابق على الدرج الخشبي كان قلبي يدق بكل قفزة وبكل درجة سلم.. فكنت لا أعلم ماذا يحدث

لي؛ وعندما أكون على أول شارعها التي تسكن فيه كنت أشعر بها إن كانت موجودة في المنزل أم لا؟!..

فكنت أشعر إن كانت ستفتح هي الباب أم أخيها..

فحقًّا كنت أحبك وتشعر بك روحي من بعيد، وكنت أشعر بوجودك قبل أن تخبرني أنك هنا حولي وجواري، فكانت دقات قلبي المفاجئة ونسمة الهواء التي تلتفني تخبرني بأنكِ موجودة في مكاني.. فيستدل قلبي عليكِ وسط الجميع، ولو بين ألف شخص بدون سبب كانت دائمًا تسبقني دقات قلبي إليكِ دون النظر إلى وجهكِ الجميل وكنت أتساءل..

هل أنتِ جميلة إلى هذا الحد أم أنتِ هكذا في مخيلتي فقط؟!

وفي نهاية المطاف اكتشفت أنه الحب... الحب الذي يأتي فجأة بدون قيود وبدون أسباب.. فلا يأتي بمال ولا يؤخذ بجمال ولا يعرف الحسب ولا النسب ولا الترتيب العقلي السخيف، فهو شيء جميل يلمس روحك ويشعرك وكأنك ترى قلبك أمام عينيك يغني ويتراقص ويتمايل فهو قدر يكتمل بالدعاء..

وكانت غرفتها صغيرة جدًّا، وبرغم صغر غرفتها إلا أني كنت أحبها.. فكانت مليئة بالألعاب الصغيرة وكنا نتقاسم الألعاب سويًّا وأتذكر جيدًا دمية الدب الأزرق الذي أطلقت عليه "حمودي" كدليل على اسمي.. فكانت دمية صغيرة ترتدي قبعة صغيرة، وله قدمان طويلتان وفم يضحك ونظارة صغير..

فأصبحت بدلًا من الذهاب للعب الكرة بعد المدرسة مع أولاد عمي وأصدقائي أذهب إلى بيتهم وألعب معها.. إلى أن يحين ميعاد عودة أبي من العمل.

فكنت أحب اللعب معها كثيرًا؛ فكانت لديها ألعاب كثيرة وكانت هي أيضًا شديدة التعلق بي فكانت تحب اللعب معي على عكس أولاد عمي، الذين كانوا يعتقدون بأني صغير وهم لا يلعبون مع الأطفال.. ومُنذ ذلك اليوم الذي حضروا فيه إلى بيتنا لم أتركها ولم أفارق يدها أبدًا..

فيدى التي كانت تُمسك بيديها لنلعب أصبحت تتشبث بها أكثر لتكون السند والعون.. أصبحت أعلمها كيف تمسك القلم وتكتب

الحروف والأرقام والكلمات، وكيف ترسم الوردة والحصان والشجر والبيوت، رغم أنني لا أحب المذاكرة وكتابة دروسي، لكني كنت متفوقًا وذكيًّا، وأساعدها دائمًا في دروس حضانة "روضة الأطفال" التي كانت تقع خارج البلدة.. ثم جاء أهم يوم كانت تنتظره بفارغ الصبر.. فذلك اليوم لم يكن سوى أول يوم في عامها الدراسي الأول.

وهي كانت تنتظر أول يوم دراسي لها بفارغ الصبر، فذهبت إلى بيتها في الليلة التي كانت قبل أول يوم لها في المدرسة لكي أحضر لها حقيبتها وأجهز لها أقلامها وأتفق معها على أن نذهب سويًّا ولكن عندما ذهبت كانت تبكي لأنها كانت تريد شراء علبة ألوان وأمها ترفض أن تشتري لها علبة مع بداية العام الدراسي وتقول لها أمها "مش هتحتاجي ألوان أول يوم يعني!".

فقلت لها بصوت منخفض في أذنيها دون أنا تشعر أمها "ما تعيطيش أنا معايا علبة 12 لون هنقسمها سوا بكرة واحنا في المدرسة" فنظرت لي وضحكت وقالت لي "بجد يا محمد؟" فغمزت لها لكي لا تشعر أمها وتتضايق منا وجهزت لها حقيبتها ثم استأذنت مسرعًا لكي أعود إلى

منزلنا لكي لا يغضب أبي مني؛ لأن الوقت كان متأخرًا وأبي لا يحب أن يكون أحد خارج المنزل بعد صلاة العشاء.

وفي الصباح ذهبت إليهم وكانت تجلس على قدم أمها تمشط لها شعرها الأسود الجميل فدخلت مسرعًا وأمسكت شعرها وقلت لها "شعرك جميل" ووقفت بجوار أمها وكانت تضع رابطة شعرها بجانبها على السلم فأخذت الرابطة وكانت عبارة عن رابطة كبيرة تتوسطها وردة حمراء كبيرة وشريطتين من نفس اللون، وأنا كنت أحب اللون الأحمر بطبيعة حالي؛ لأني كنت أشجع فريق الأهلي، ولكن عندما أعطيت أمها الرابطة ولبستها زاد وجها الملائكي جمالًا وازدادت نضرة طفولتها رونقًا مرة واحدة فدق قلبي.. فلا أعرف لماذا حتى عيني شعرت أنها لمعت عندما نظرت إليها وهي مبتسمة لي وأخذتها وخرجنا من منزلهم الذي كان قريبًا من المدرسة، وكعاداتنا ركضنا إلى المدرسة لنرى من سيصل أولًا، وكعادتي كنت أتركها تفوز.. فمنذ طفولتها وهي كانت استثنائية على قلبي لا تشبه أحدًا ولا أحد يشبهها، منذ نعومة أظافرنا ونحن سويًّا، يومي لا يكتمل إلا برؤية وجهها الطفولي البريء..

وحين وصلنا إلى مدرستها أوقفتها في طابور المدرسة وكنت أنا من ضمن أعضاء الشرطة المدرسية فأوقفتها في الطابور الخاص بفصلها.. وكنت أنا المسؤول عن نظامه وحركته إلى الفصل فأوقفتها في أول الصف وأخذتها إلى فصلها وكان الجميع يعتقد أنها أختي الصغيرة لذلك أنا كثير الاهتمام بها.. وانتهى اليوم الدراسي الأول لها فكانت تعتقد أن المدرسة مثل الملاهي وكل خيالاتها الكبيرة لم يحدث منها شيء.. بل على العكس كرهت المدرسة وكل زملائها في الفصل وقالت لي "أنا مش هروح المدرسة تاني أبدًا، دا كل الفصل وحش وبيشدني من شعري وخدوا أكلي مني" فضحكت وقلت لها "ما تقلقيش مش هاخلي حد يزعلك في الفصل تاني" وذهبت معها اليوم الثاني ونبهت على زملائها وقلت لهم "إنكم جميعًا إخوة وأصدقاء، ولا بد أن يتعامل الجميع بلطف وحب أكثر" وأكدت مديرة المدرسة على هذا الكلام في طابور المدرسة الصباحي وأصبح لها أصدقاء من أقرانها بعدما كنت أنا الصديق الوحيد لها، فكنت أكرهم جميعًا حين تحكي لي عنهم، أو حين ننتظر أحدهم بعد انتهاء اليوم الدراسي.

ومرت سنة تلو الأخرى ونحن نذهب إلى المدرسة كل يوم سويًّا ويدي لا تفارق يدها أبدًا..

وكنت أنتظر جرس الفسحة بفارغ الصبر.. فلم يكن صوت الجرس ودقاته مجرد دقات عادية أنتظرها لألعب في فناء المدرسة وأجري وألهو وآكل مثل بقية أقراني في المدرسة؛ بل كان صوت دقات الجرس مرتبطًا بدقات قلبي.. فكنت أنزل مسرعًا إلى باب فصلها وكنت أحب أن آخذ منها مصروفها وأتزاحم في وسط الأطفال لكي أشتري لها حلواها المفضلة بجسمي الضعيف النحيل الذي كان يصعب عليَّ آنذاك أن أتصارع به في وسط الحشد من الأطفال الذين هم في مثل عمري، والذين هم أكبر مني.. ورغم ذلك كنت أجيد الشراء وسط الزحام الكبير من الأطفال أمام "كانتين" المدرسة ونذهب سويًّا خلف فناء حديقة المدرسة ونأكل الحلوى.. وفي نهاية أحد أيام الدراسة جاءت تبكي وفي يدها شعر من شعرها الجميل الذي كان يتطاير وقالت لي وهي تبكي بكاءً شديدًا "الواد رضا.. الواد رضا شدني من شعري وقطعهولي" فأخذت يدها سريعًا وأخذت الشعر منها وقلت لها اجلسي

هنا وركضت في فناء المدرسة حتى وصلت إلى رضا وقلت له "الحق يا رضا في ورد كتير في الجنينة تعالى ناخد منه بسرعة قبل ما المديرة تشوفنا" وذهبنا مسرعين إلى حديقة المدرسة ثم انقضضت عليه بقبضة يدي الضعيفة حتى سقط على الأرض وقلت لسما "شديه من شعره بسرعة زي ما شدك" قالت وهي خائفة "لا يلا بينا نروح بيتنا" فرددت عليها بصوت عالٍ وكان صوت أنفاسي يرتد بين شهيق وزفير "قُلت لك شديه زي ما شدك" فشدت شعره بكفها الصغير الضعيف شدة صغيرة تتناسب مع حجمها، فأمسكت يدها ونتفنا شعره بكلتا يدينا حتى خرج شعره في يدنا وقمنا مسرعين وهي في يدي وهربنا من بوابة الخروج الخاصة بالمدرسة.

فلن أنسى هذا الموقف أبدًا، ولن أنسى شعرها المقطوع في كف يدها الصغيرة وهي تستنجد بي وعيناها تبكيان وتلمعان، ولن أنسى أيضًا أنه كان أول استدعاء ولي أمر لي في المدرسة بسببها.

❋ ❋ ❋

الفصل الثاني

وفي يوم من الأيام انتشر خبر في جميع أرجاء المدرسة أشعل الحزن بداخلي، حيث قالوا في المدرسة إن هناك هيئة للترميم ستقوم بتجديد مبنى المدرسة القديم.. وسينقلون طلاب الصف السادس إلى مدرسة أخرى في آخر البلدة..

وكنت أنا من ضمن طلاب الصف السادس، ومعنى ذلك أنني سأذهب مع بقية زملائي إلى مدرسة جديدة بدون سما.. فجعل هذا الخبر الحياة تنصبغ عندي بصبغة سوداء وتتسرب تلك الصبغة إلى داخلي.. وبالفعل بعد انتشار الخبر في المدرسة بأسبوعين بدؤوا بإجراءات نقل طلاب الصف السادس إلى المدرسة الأخرى، وكان معظم أصدقائي سعداء بالخبر لأنهم سينتقلون إلى مدرسة جديدة ويلعبون في فنائها بمفردهم فلا يضايقهم فيه أحد، ولا شيء يفسد اللعب عليهم، إلا أنا؛ فكنت حزينًا جدًّا لأنني سأترك سما وسأُحرم في

صباحي الذي يتلون بلون وجنتيها الجميلتين وتمتزج ببراءة ضحكتها الطفولية الطيبة، وهي أيضًا عندما أخبرتها كانت حزينة جدًّا وشردت قليلًا ثم قالت لي "فكيف إذن سنلتقي؟!".. فاتفقت أنا وهي أن أوصلها إلى المدرسة كُل صباح كما هي عادتنا دائمًا، وبعد ذلك أذهب إلى مدرستي..

وفي كل يوم بعد أن أقوم بتوصيلها كنت أُكمل الطريق إلى مدرستي الجديدة وكنت أفكر طيلة الطريق بها، فتمنيت لو لم أكن في الصف السادس معهم.. واعتدت بعد ذلك على المدرسة الجديدة لكنني لم أعتد أبدًا على عدم وجود سما؛ فكنت دائمًا أفكر في أمرها.. وكيف ستشتري الحلوى من -كانتين المدرسة- بجسدها الضئيل وكيف ستقضي وقت راحتها بمفردها، ومع من ستأكل وتلعب وتذاكر.. فأمر فراقنا قلب حياتي رأسًا على عقب في تلك الفترة..

ولكني عندما كنت أعود من المدرسة كنت أذهب إليها على الفور لكي نكتب دروسنا المدرسية معًا.. ثم اعتدنا على الأمر وأصبحنا نلتقي دائمًا بعد انتهاء اليوم الدراسي..

وفي يوم استيقظت القرية على خبر اكتشاف مقبرة فرعونية.. تحتوي على صناديق من التماثيل الذهبية الصغيرة.. فانتشرت أخبار الكنز الذي تم اكتشافه في قريتنا مثل النار في الهشيم وتسربت إلى القرى المجاورة.. فالأخبار في تلك القرى لها حظ الحمام الزاجل..

ثم انتشرت قوات الأمن حول المقبرة وفوج من هيئة الآثار لحماية المقبرة والتنقيب حولها عن مقابر أخرى.. فلصوص الآثار منتشرون جدًّا بالصعيد..

فتعكر هدوء قريتنا التي لم تشهد يومًا أحداثًا مثيرة كهذه..

فكان أهل القرية معظمهم من الناس الطيبين المسالمين، وكان الجميع متفاجئًا مما حدث ولا أحد يتوقع أن ذلك ممكن أن يحدث في "الباسكية" وأنها تكون مقبرة لكنز كبير موجود بينهم في القرية، فكنا نسمع حكايات قديمة تقول إن هناك مقبرة مدفونة مليئة بصناديق الذهب والتماثيل الفرعونية القديمة، ولكن كنا نقول أنها قصص وحكايات خرافية مثل قصة "أبو شوال" تمامًا..

وفي يوم من الأيام كانت أم سما تجلس مع أمي وتشتكي لها قلقها على أولادها من أقاربهم، فهم ينحدرون من عائلة كبيرة في الصعيد ولكن خارج القرية، يرجع ثراؤهم إلى نبش المقابر الفرعونية والتجارة بما فيها بالإضافة إلى تجارة السلاح، فهم أول من قاموا بإدخال السلاح إلى الصعيد، فكانت تخشى مع انتشار خبر تلك المقبرة أن ينزل أقاربها إلى القرية ويعيثوا فيها الفساد فيتسرب ذلك إلى مسامع الشرطة أو يحاولون إلحاق الأذى بها وبأولادها..

وحين دلفت إلى الشرفة سمعتهم يتهامسون وتقول أمها "دول تجار سلاح وآثار، أنا خايفة يئذوا عيالي" فطلبت مني أمي حينها أن أخرج لأنها تريد أن تجلس مع خالتي أم سما بمفردها قليلًا، ولكن أنا بطبعي اللحوح قلت لأمي "هاقعد ساكت ومش هاعمل دوشة والله" فأنا كنت أريد أن أعرف ما القصة وما سبب بكاء أم سما وخوفها الشديد، فقد قلقت أيضًا على سما وأخواتها عندما رأيت أمها على هذه الحالة، وسكت مُنصتًا إلى كلامهما لكي أفهم ما يدور، وفهمت أن عائلة سما من أكبر

عائلات الصعيد في تجارة الآثار والسلاح، فكانت تخشى أم سما على أولادها منهم..

وتريد أنا تأخذ أولادها وتذهب وتعيش في مكان بعيد في وجه بحري لكي تكون بعيدة عن مشاكل العائلة الكبيرة؛ لأنها تريد أن تكون لها حياتها المنفصلة تمامًا عنهم، ووقتها شعرت وكأن فيلمًا سينمائيًّا يُعرض أمامي من طريقة كلام أمها، وبدأت أشعر بالتوتر لأنهم يفكرون في أن يغادروا البلدة، ولكن أمي نصحتها بأن تكون بجوارها ولا تترك بلدتها وتذهب إلى مكان غريب لا تعرف فيه أحدًا، وتعيش وسط عائلتنا هي وأولادها وقالت لها لتطمئنها بأن أقرباءها يسكنون بعيدًا عن قريتنا وهنا أمان لكِ أكثر أنتِ وأولادك ونحن معكِ ومع أولادك ولن نترككم، فكانت تردد ذلك الكلام أثناء دخول أبي فوجد أم سما تبكي فلم يسأل ما بها وألقى السلام عليهم ودخل إلى غرفته.. فكان أبي على عكسي تمامًا.. لا يحب أن يتدخل فيما لا يعنيه ولم يكن متطفلًا على أحد مهما كان قريبًا لعائلتنا إلا إذا أدخله صاحب الشأن في الكلام أو المشكلة..

ومنذ ذلك اليوم وأنا شعرت من داخلي بمسؤولية زائدة تجاه سما، وأصحبت أخاف عليها بشكل كبير، فيبدو أنني عندما رأيت الخوف في عين أمها انتقل الشعور لي أيضًا.. ولم أخبر سما عن أي شيء مما سمعت حتى لا تشعر بالخوف من أقاربها الذين لم ترَهم من قبل، وفي يوم رأيت سما ذاهبة إلى درس في آخر القرية.. وأحد أقاربها اقترب منها ليسلم عليها.. فتذكرت كلام والدتها وركضت بأقصى سرعة لدي وأخذتها من يدها وقلت لها.. "سما اجري دا عاوز يموتك".. فأنا كنت أعرفهم جيدًا لأن أبي كان يأخذني معه في بعض جلسات حل المنازعات العرفية وكانوا هناك في جلسة من الجلسات وبدا على ذلك الرجل أنه أكثرهم شرًّا وشراسة آنذاك..

فأخدتها وركضنا.. فركضت معي لأنها كانت لا تعرف ذلك الرجل ولا تعرف أحدًا غير أسرتنا وزملائها في الفصل وبعض جيرانها.. ثم قالت لي وهي تركض "هو عاوز يخطفني ليه؟" فقلت لها "علشان يبيعك لأبو شوال" وكان أبو شوال رجلًا خياليًّا يخيفون به الأطفال الأشقياء في القرية..

وحين ذهبنا إلى بيتها وقصت لوالدتها ما حدث.. حذرتها من أن تسلم على أحد لا تعرفه أو تقف معه في الشارع.. ولم أقل لوالدتها أنه أحد أقاربها حتى لا تقلق..

وحين غادرت بيتهم بدأ عقلي يفكر لماذا أفعل كل هذا مع سما، هل أنا أحبها فعلًا؟! فلماذا أغار عليها من كل من حولها وأخاف عليها كل هذا الخوف! لماذا لا أحب أن تلعب وتستذكر دروسها مع أحد غيري؟!

وبدأت أكبر وهي تكبر حتى وصلت إلى الصف الأول الإعدادي وهي إلى الصف الرابع وبدأت تزداد جمالًا، فلم تكن تزداد طولًا كثيرًا عما كانت عليه.. وبدأت أتعلق بها أكثر وأكثر وإلى الآن لا أعرف لماذا.. وكنت أسأل نفسي دائمًا لماذا..؟!

وكان لي صديق يدعى "صلاح" في نفس الصف مع سما.. كنت أطلق عليه "مشمش" لأنه كان لا يأكل أي نوع من الفاكهة سوى "المشمش".. وكم تشاجرنا بسبب ذلك الاسم.. فكيف أدعو ابن الصعيد بذلك الاسم الغريب المطرف؟! ولكن بالنهاية اعتاد ذلك الأمر.. وكنت معتادًا أن أحكي له عن سما كثيرًا، فكان يقول لي إنكما

ستتزوجان عندما تكبران لأنك تحبها وهي تحبك، فكنت أضحك عندما يقول لي ذلك محرجًا منه وأقول له لا تقل لي مثل ذلك الكلام، ولكن عندما كان يقول لي ذلك كنت أشعر بسعادة كبيرة بداخلي لا أعرف سببها..

وبدأت أرتب مواعيد دروسي قبل وبعد دروسها كي أراها دائمًا في الطريق وأسلم عليها، وكنت سعيدًا جدًّا بذلك، فكنت أراها في اليوم مرتين أو ثلاث على الأقل في الشارع..

وخاصة يوم الخميس كنت أحبه جدًّا، كنت أحرص أن أذهب حتى في أشد أيامي وجعًا ومرضًا، فبمجرد رؤية وجهها الصبوح ترمم ضحكتها روحي وبشدة.. فكنت أذهب إلى درس العلوم وهي كانت قبلي والرياضة كانت بعدي والحاسب الآلي أيضًا..

وحتى في يوم الإجازة كنت أذهب لأسهر معهم وألعب معها ثم نستذكر دروسنا سويًّا بعد ذلك، واستمريت على هذا الحال إلى أن ظهرت نتيجة الصف الأول الإعدادي.. فكان يومًا مشؤومًا، فأنا لم أرتب في العشر الأوائل على دفعتي كعادتي، فغضب أبي مني كثيرًا عندما

ذهبت إليه بالنتيجة وقال "الولد دا ما يطلعش برا البيت طول الأجازة ولا يخرج في أي مكان ولا يلعب مع أي حد" وبالطبع شعرت بالحزن الشديد ليس لأني لن أخرج من البيت طيلة العطلة رغم أني لم أعتد أبدًا على الجلوس في البيت.. لكني حزنت لأني لن أرى سما.. وقلت لنفسي كيف سأراها كل هذه الفترة وكيف سأخبرها أن أبي منعني من الخروج وما السبب؟!.. وفي نفس الوقت كنت أنا الذي أشجعها على المذاكرة.. فكيف أشجعها مرة أخرى وأذاكر لها وأنا ممنوع من الخروج بسبب نتيجة شهادتي، وكنت حزينًا جدًّا على ما حدث وقررت أن أستعيد نفسي من بداية الترم الجديد وأذاكر دروسي بجدية أكثر لكي لا تراني لا أصلح أن أذاكر لها وأعلمها..

وجاءت هي إلى منزلنا وسألتني "ليه مش بتيجي تلعب معايا إحنا في الأجازة هو أنت زعلان مني؟!" فلم أعرف ماذا أقول لها فكنت محرجًا من أن أخبرها بأن أبي منعني من الخروج واللعب مع أي شخص بسبب درجاتي السيئة، وكذبت عليها وقلت لها بأني فقط مريض وكانت أول مرة أكذب فيها على سما..

وكأنه قُدر لي بأن تكون هي أول أخطائي.. ودفتر سيئاتي.. فكيف لشخص أن يكون الجنة بنكهة النار؟!

ولا أعلم إلى الآن لماذا لم أقل لها الحقيقة وقالت لي "ألف سلامة" ثم سألتني، هل يمكنني أن آتي للعب معك هنا؟!.. وفعلًا كانت تأتي كل يوم وتلعب معي وأنا أتظاهر بالمرض لكي لا تقول لي هيا نخرج إلى الشارع.. ولو حدث ذلك وعرف أبي بأني قد كسرت كلامه.. لا أعرف ماذا يمكن أن يحدث لي؟!

وفاتت الأيام وبدأنا الترم الثاني وأبي أعطى تعليمات لأمي ألا أخرج وألا أذهب لأقربائنا فأصبحت أذاكر دائمًا في منزلنا، وأصبحت لا أرى سما إلا في الشارع والطريق بعد الدروس أو صدفة.. فكنت أشعر بأني أشتاق لرؤيتها وأني حقًّا أحبها وبدأت معي مرحلة المراهقة ووجدت نفسي أريد أن أراها دائمًا وكنت أريد أن أذهب إلى بيتها مثلما كنت أفعل دائمًا، ولكني كنت أخاف من أبي فقد تخبره خالتي ولو بالصدفة أنني كنت عندهم فكنت كثيرًا ما أقف أمام الشارع التي تسكن فيه وأقول

سأذهب إليها وأراها وأذهب ولكني أدخل إلى منتصف الشارع وأتردد وأرجع ثانية، وفي مرة من ترددات وأنا أرجع إلى الخلف ومصمم على الانسحاب كعادتي من خوفي أن يعرف أبي أنني مهمل في دروسي وأذهب لأقاربي لكي ألعب، فوجدتها في وجهي فدق قلبي دقة خفيفة لمست روحي ولم أتخيل أبدًا أني عندما أراها سيحدث لي كل هذا! فقالت لي "هو انت كنت عندنا يا محمد؟" لا أنسى أبدًا كيف نطقت اسمي تلك المرة، وكيف كانت كلمة محمد جميلة منها إلى هذا الحد، فتلعثمت في كلامي وقلت لها "أيوة كنت عندكم.. لا ما كنتش عندكم.. بصي أنا هابقى آجي لكم"

وتركتها وذهبت مسرعًا فكنت أفكر فيها وأتذكر شكلها وهي تتكلم معي، وشعرت يومها بدوار الحب وأنني فعلًا أحبها، ولكني لم أكن متأكدًا بعد.. فكنت ما بين طفل بريء كل مشاعره صافية، وصبي مراهق يلمس الحب قلبه لأول مرة.. فكانت البدايات للصبي المراهق وكنت دائمًا أتابع أخبارها من صديقي "مشمش" يحكي لي ما يدور عنها في المدرسة..

وأقص له ما يدور في قلبي وما يحدث لي، وفي يوم جاء وقال لي أنه تم تكريمها في الطابور الصباحي للمدرسة في مادة اللغة الإنجليزية لأنها كانت طالبة الشهر، وأعلى درجة في زملائها.

فسعدت كثيرًا بذلك الخبر وذهبت إلى بيتها هذه المرة دون أي تردد رغم أني كنت قلقًا أن يعرف أبي بيني وبين ثنايا نفسي، لكن لم أكن مترددًا أبدًا في أن أذهب إليها وأهنئها على الجائزة وعندما ذهبت فتح أخوها الصغير الباب وسألته عليها قال لي "قاعدة فوق" فجريت على السلم الخشبي كعادتي ويبدو أنها سمعت صوتي فوجدتها تقف على آخر درجة وبيدها قلم فرنساوي أزرق جديد، وقالت لي وهي تضحك ضحكتها البريئة "أنا أخدت القلم دا جاايزة" وهي تحرك القلم في يدها يمينًا ويسارًا وأنا قلبي يتحرك معها، فلا أنسى أبدًا أني تأكدت بأن قلب الطفل الصغير والصبى الناضج بكل تأكيد وقع في الحب في ذلك اليوم، ولا أنسى شكل ضحكتها ولا يدها وهي تحرك القلم وتنظر إليَّ ولا شكل شعرها المجنون وهو يتطاير حول رقبتها الجميلة.

فلم أقع في الحب يومها فقط؛ بل وقفت فيه أيضًا.. فرددت عليها وقلت لها "طاااب ما انااا عاااارف" فضحكت أكثر ولكن باندهاش وسألتني كيف عرفت فنحن لم نعد في مدرسة واحدة في تلك المرحلة فقلت لها "العصفورة قالت لي البت سما اتكرمت النهار دا علشان شطورة في الإنجليزي"

فضحكت وقالت لي "ماشي يا بتاع العصفورة، تعالى نذاكر شوية" فلم نذاكر منذ فترة طويلة لأنك كبرت ودروسك كثيرة، فقلت لها لن أستطيع فأنا عندي درس بعد قليل وقلت لها "باي هاجي لك تاني باااااي" وتركتها وغادرت منزلها وهي في خيالي وهي تقول "أخدت القلم دا جايزة" فيومها لم يكن يومًا عاديًّا أبدًا؛ فطوال الوقت يرن صوتها في أذني وأفكر فيها.. وأنا في طريقي للمنزل سمعت كلمات أغنية تقول..

بتمون يا قلبي عينك على قلبي ما كان يمكن لو ما انت تكون
مـعذور لو جن القلب معذور بعيون عم تغزل حلا معذور.

مع موسيقا هادئة جدًّا خطفت قلبي وجن قلبي حرفيًّا وقد دخلت منزلنا يومها شخصًا آخر، فدخلت وأنا متأكد أنني أحب وقلبي واقع في الحب دخلت المنزل صبيًّا مراهقًا جميلًا دق الحب قلبه منذ أن فتح لها الباب وهي تمسك في ذيل فستان أمها، بدقة قلب طفل واليوم أصبح قلب صبي تأكد من حبه الصغير.. فلن أنسى ذلك اليوم، فكان يوم اثنين بعد صلاة عصر ولن أنسى حركة القلم الفرنساوي وضحكتها وتطاير شعرها الجميل، أكدوا لي أنني وقعت في الحب وواقف فيه!

و لكن الأيام الجميلة تمضي سريعًا..

وفي يوم استيقظت القرية على خبر مفجع، كل الناس كانت تتحدث عنه وهو أن المقبرة الأثرية قد نُبشت وصناديق الذهب فيها قد سرقت، ولا أحد يفهم شيئًا، ورجال الشرطة ينتشرون في جميع أنحاء القرية بحثًا عن سارق الآثار، ولكن قريتنا كانت مسالمة إلى أقصى حد، فالجميع كان متفاجئًا مما حدث، ولا أحد يتوقع أن ذلك من الممكن أن يحدث في "الباسكية" فكان جميع أهل القرية عندهم الشك في تلك العائلة التي

تعيش خارج القرية منذ زمن بعيد، فتلك العائلة تبحث عن الآثار في كل قرى الصعيد وتنهب خيراتها..

وفي نهاية اليوم أكدت تحريات النيابة وتحقيقات رجال الشرطة بأن من نهب المقبرة أفراد من تلك العائلة، ومن سوء الحظ أن هذه العائلة كانت عائلة أقارب سما.

❋ ❋ ❋

الفصل الثالث

وكان ذلك قبل العيد بفترة..

فأتذكر جيدًا ليلة العيد وأنا جالس أفكر ماذا سأفعل لها في العيد، فكنت دائمًا أدخر من مصروفي لمثل هذا اليوم وأذهب إلى أبي وأبدل منه ما ادخرته بمال جديد لكي أعطي لها عديتها..

فكنت دائمًا أعطيها عشرة جنيهات جديدة، فكان في ذلك الوقت مبلغًا كبيرًا..

فكان كل مصروفي نصف جنيه آنذاك.. وكنت عندما أذهب إليها في صباح العيد الباكر أجدها تنتظرني وتقول لي "اتأخرت ليه، أنا عاوزة عيدية" وكنت أقول لها

"ما فيش عيدية قبل ما تجيبيلي كحك العيد" وكنا نجلس سويًّا أنا وإخوتها نأكل الكعك ونضحك ونلعب، ثم نتجول في أنحاء القرية.. فقريتنا كانت جميلة في يوم العيد، ففيها ملاهٍ صغيرة.. فكنا نذهب

ونلعب مع الأطفال فيها، ولكني كنت أقف معهم من بعيد ولا ألعب؛ فكنت أشعر بداخلي أني كبرت على مثل تلك الألعاب..

وفجأة سمعت أخبارًا تدور في القرية عن حادثة سرقة الآثار التي حدثت منذ أسبوعين، فسمعت أنهم قبضوا على السارق وهو من عائلة سما، وقالوا إنهم سيقومون بتفتيش كل البيوت التابعة لهذه العائلة سواء كانت بيوت أقارب أو أصدقاء.. فعندما سمعت هذا الكلام اعتقدت بخيال طفل أنهم سيأخذون سما وأمها وإخوتها لأنهم أقاربهم فخفت كثيرًا.. والتزمت الصمت وقلت لنفسي سأسال أبي عن هذه القصة فلا داعي أن أثير القلق في يوم العيد حتى لا أفسد بهجته عليها هي وعائلتها..

وانتهى العيد وذهبت إلى أبي ليلًا لكي أفهم ما القصة فقال لي أبي: هذه شائعات منتشرة في أرجاء القرية.. فأنا كنت أصدق أبي وأثق به كثيرًا، ولكن هذه المرة شعرت بأنه يطمئنني لا أكثر.. وفعلًا شعوري الداخلي كان يخبرني بأن الأمر أكبر من ذلك..

وقد حدث ما كنت أخشاه حيث اقتحمت الشرطة بيوت جميع أقارب تلك العائلة لتفتيشها ومن ضمنهم بيت سما للبحث عن الآثار الضائعة، ويومها جاءت أم سما إلى منزلنا بأولادها لكي لا يشعرون بالذعر من أفراد الشرطة..

فجلست ألعب معهم كي لا يشعرون بأي خوف.. لكن كان التوتر والخوف يخرج من أعين والدتها، فهي بطبيعة حالها مذعورة دائمًا ولكن أمي كانت تتسم بالذكاء والفطنة فكانت دائمًا تحاول أن تهدئ من روعها وتطمئن قلبها.. وحين انتهى التفتيش ولم تجد المباحث أي شيء في القرية ولا في بيت سما، رحلوا عن القرية..

وعادت أم سما بالتفكير مرة أخرى بالرحيل عن القرية، وعندما كنت أسمع ذلك الحديث كنت أشعر بفقدان الأمان وخوف غريب يداهمني.. فكنت أشعر أن الحياة ستقف برحيلها، وكيف سيمر يومي بدون سما وضحكتها؟ وبدأت أتخيل أنها ستغادر وتتركني بمفردي فشعرت يومها بألم غريب بين ثنايا صدري لمجرد التفكير في مغادراتها..

فحاولت أن أتدارك الموقف فقمت بجرأة وقلت لوالدتها.. "مش هتمشوا من هنا، أنا هاخلي بالي منكم" بصوت مرتفع وشجاعة فتبسمت لي أم سما وقالت لي.. "ربنا كريم يا محمد" فنظرت إلى أمي وقلت لها هل ستتركينهم يغادرون يا أمي؟!

فقالت لي أمي اجلس واهدأ لن يغادروا، فوثقت في أمي وقدراتها الهائلة على الإقناع.. فأمي كانت حكيمة وذكية وبالفعل كعادتها أمي أقنعت أم سما بألا تغادر..

فأنا كنت خائفًا جدًّا من أن يغادروا.. لولا إصرار أمي عليهم وإقناعها لهم بالبقاء.. فكأنها كانت تشعر بقلبي..

وبعد يومين جاء أحد من أقارب سما وذهب إلى منزلهم لزيارتهم، وكنت في ذلك اليوم أذاكر لها مادة الدراسات الاجتماعية.. فرأيت أم سما تقف أمام باب منزلهم وتقول بصوت عال "ما فيش حد هنا، لما أبو سما ييجي ابقى تعالى"، فقلت لسما قومي بحل تلك الأسئلة وقمت مسرعًا لأعرف ماذا يحدث، ومن هو الشخص الذي تمنعه أم سما من الدخول إلى المنزل؟!.. فوجدته أحد أقاربها ويقول لها "أنا مش هاستنى لما ييجي، خبي الحاجة دي عندك، البوليس بيدور عليَّ"

وفجأة سمعنا صوت عربات الشرطة قريبة من المكان، فدفع الرجل الباب ودخل رغمًا عنها.. فغضبت كثيرًا وقلت له "اخرج الآن وإلا سأخرج لأبلغ البوليس عنك"

فقالت لي أم سما "اسكت يا محمد" ولكنها كانت مذعورة فكانت تترجاه ليخرج فقالت له "أرجوك اخرج أنا وأطفالي ليس لنا أي صلة بكم ولا بعملكم، وهم أطفال لا ذنب لهم فيما يحدث.. ولا ذنب لهم لكي يعانوا بسبب أخطائكم".. فوجدت سما تقف بجواري وتشعر بالخوف، فكانت تُمسك في ملابسي وكانت خائفة جدًّا وتترقرق الدموع بأعينها..

فقلت لها "لا تخافي يا سما إنه عامل الكهرباء سيقرأ عداد الكهرباء ويغادر"

فنظر الرجل إليَّ وغادر المكان، ومنذ ذلك اليوم لم أنسَ شكله ولا ملامح وجهه المخيفة ولا طول قامته ولا دفعته للباب للهروب داخل المنزل..

فكانت كُل ذكرياتي مرتبطة بسما، فلا أنسى تلك الليلة التي دخلت فيها إلى غرفتي الصغيرة ورفعت وسادة سريري.. فقد كانت سما

أعطتني صورة لها وهي في الرابعة من عمرها، وكنت أخفي الصورة تحت وسادة رأسي خوفًا من أن يراها أبي.. وحينها كان سيفهم كل شيء لأنه لم يكن لدي أي مبررات لاحتفاظي بالصورة وإخفائها سوى الحب.. فلم يكن لدي إجابة لسؤاله المتوقع

" هي صورة سما معاك بتعمل إيه..؟!"

لكني أخرجت الصورة وجلست أنظر إليها بقلبي، ولم أعلم حينها هل هذه تصرفات صبي صغير أم شاب ناضج؟!

ولكن كل ما كنت أعرفه هو أن قلبي كان يدق وتسعد دقاته بالحب، ولا أعتقد أن هناك سن للحب أو وقت مناسب له؛ فالحب يأتي من باب لا تعلمه.. يأتي من منزل لا تعرف في أي بلد سيكون، أو إلى أي مكان ينتمي، فهو يأتي فجأة دون إذن.

فلا تعلم هل نفسك ستشتهي ذلك الباب أم لا؟! فتجد نفسك بقلب لا تملكه ولا تتحكم في نبضاته، وتجلس وتفكر، هل اختيار قلبك صحيح ومناسب لك أم لا؟! فالقلب سلاح ذو حدين، قلبك قد يكون سبب حيرتك أو ربما استقرارك، وقد يكون سبب سعادتك أو تعاستك،

فيشتاق لأشخاص رغم أنفك، فهو ليس عضوًا لضخ الدم ومتابعة عملية التنفس فقط؛ بل هو الوحيد الذي يعطي لروحك الطمأنينة.. والقلق أيضًا.

وفي الحقيقة مهما تتكلم عن العضو الذي بين ثنايا صدرك لن تريح نفسك أو تصل لوصفه، ولن يستطيع أبدًا أن يختار من يهواه..

فالقلب لا يفكر أبدًا في الاختيار.. فهو يختار بدون سبب.. ينجذب إليهم مرة واحدة.. فتجد نفسك غريقًا في الحب، تقوم بأشياء لم تتخيل أن تفعلها.. ستفكر طويلًا.. وتنتظر على جانب الطرقات بالساعات لتراها من بعيد.. ستسافر بلادًا.. حتى لو أنك تعلم أنك فقط سترى ظلها..

سَيُسكرك قلبك فانتبه إن وقعت في الحب؛ فالسكران في الحب يغيب عقله وينتبه قلبه، وللأسف مُسكر الحب لا يفوق.. تائه في الحب ودلاله..

وكنت أنا السكران التائه عندما أنظر إلى صورتها بقلبي وأتذكر فيض حديثنا وضحكنا الدائم معًا..

ولعبنا واستغاثتها الدائمة بي في معظم الأوقات..

فنظرت حولي فوجدت السعادة تنتشر في جميع أنحاء غرفتي وكأنني فتحت بابًا كان في عين الشمس وملأت الغرفة بالنور، فجميع أشيائي كانت مبهجة حولي.. الكتب والدفاتر والأقلام تضحك وحتى صورة أبو تريكة التي كنت أعلقها في غرفتي ومعه درع الدوري كانت سعيدة، حتى الدرع نفسه كان يضحك.. كل الأشياء كانت سعيدة لدخول الحب قلب الصبي الصغير، وتذكرت الأغنية التي سمعتها عند دخولي إلى المنزل وبحثت عليها على جهاز الحاسب الآلي وقمت بتشغيلها وغرق قلبي مع الموسيقى..

وبعد ذلك تذكرت أن هناك مباراة بين فريق الأهلي والزمالك وكنت مجنونًا بتشجيع الفريق الأحمر على الرغم من أن معظم عائلتي كانوا يشجعون الأبيض.. وحتى سما كانت تشجع الفريق الأبيض مثل باقي العائلة..

وكنت سأنسى ميعاد المباراة بسبب التفكير الزائد فيها، وأنا من عادتي أنتظر كل مباراة للأهلي بفارغ الصبر، فقمت بتجهيز نفسي للمباراة ولبست تي شيرت أبو تريكة وأحضرت العلم مع أني كنت

سأشاهد المباراة في المنزل مع عائلتي وأولاد عمي، لكن مباراة الأهلي كانت أهم حدث أسبوعي لي، وكنت دائمًا على خلاف مع سما ونتشاجر كثيرًا بسبب هزيمة الزمالك المستمرة من الأهلي..

وفي ذلك اليوم خاصة كانت المنافسة شديدة، فقد هزم الأهلي الزمالك مجددًا بنتيجة كبيرة تلك المرة.. وكنت في غاية السعادة في ذلك اليوم فقد فاز فريقي المفضل الذي أعشقه على غريمه التقليدي..

ولكني كنت أعلم جيدًا بأن سما بعد انتهاء المباراة ستكون حزينة جدًّا، وأنا كنت أحب أن أجادلها وأضايقها وأقول لها "فريقك ضعيف وما يقدرش يكسبنا" فكانت تنزعج كثيرًا وتقوم بضربي بكفها الصغير وكنت أحب ذلك جدًّا، أحب أن نتشاجر ونجري وراء بعضنا البعض، فكانت تغضب كثيرًا مني ولكني كنت أحب أن أستفز شعورها وأضايقها، ولكن لا أتركها تحزن أبدًا مني وهي كانت تعلم أني أحب أن أثير غضبها وأضايقها لكي أضحك عليها..

واستمريت أنا وهي في العناد لفترة طويلة بعد هزيمة الزمالك الكبيرة، وبدأت أفكر كيف أخبرها أنني أشعر بالحب تجاهها، وما الطريقة التي سأخبرها بها؟!

فهل سأخبرها بنفسي؟! أم سأخبر صديقتها في المدرسة؟! أم سأكتب لها في كشكول المذاكرة؟!

وهل الوقت مناسب لأخبرها أم إنها ما زالت صغيرة على أن تفهم شعوري وإحساسي بها؟ فكنت أفكر وأتردد هل سأقول لها فعلًا أني أحبها أم لا؟!

ففكرت وخفت أن تكون هي تحبني كأخيها أو تتعامل مع الموضوع بطفولة وتذهب إلى أمها وتحكي لها.. فتذهب إلى أبي وتشتكي مني..

فوقتها لن يرحمني أبي بسهولة، ولن أرى سما ولن أتعامل معها مرة أخرى، ولن أذهب إلى منزلهم وأذاكر لها ونلعب كما كنا..

فخفت أن أخبرها، وكنت أقول لنفسي وماذا لو اعترفت لها بحبي وبادلتني هي نفس الشعور.. ماذا لو قلت لها أحبك وقالت لي ولماذا تأخرت بقلبك عليَّ، أنا أيضًا أحبك..؟!

❋ ❋ ❋

الفصل الرابع

ماذا لو كان القلب الذي أحبه يحبني؟! وماذا لو أن طفلة قلبي بادلتني نفس الشعور؟!

فكنت أفكر كثيرًا وأسأل نفسي سؤالًا واحدًا فقط؟! هل أعترف بحبي لها منذ طفولتنا أم أنتظر عندما تكبر وتنضج أكثر؟!

كنت مترددًا جدًّا وذلك التردد كلفني الكثير والكثير، فكلف قلبي وجعًا وألمًا وحيرة وسهرًا وقلقًا، وجعل قلبي يفكر هل تحبني أم أنا مجرد قريب وصديق مفضل لديها؟!

حتى جاءت ليلة وقلت لنفسي "هاقول لها واللي يحصل يحصل" وجلست أفكر كيف سأخبرها وقررت أن أكتب لها في دفتر المذاكرة أني أحبها وأريد أن تصبح زوجتي في المستقبل، وإن كنتِ تحبينني أيضًا فاكتبي لي أيضًا وأعطيني الورقة بعد درس العلوم، فكانت دروسنا خلف بعضها، وفي تلك الليلة لم أنم أبدًا من كثرة التفكير فيها وفي رد

فعلها.. عندما أخبرها.. وماذا سأرتدي يومها؟، فتقريبًا في تلك الليلة ارتديت جميع ملابسي لأرى الأجمل وأذهب به.

وذهبت في الصباح إليها وفضَّلت أن أرتدي "جاكيت" بدون أكمام أسود اللون من صوف ممزوج باللون الأحمر والأبيض على بنطال أسود وقميص أبيض وحذاء أسود وساعة ذهبية أحضرها لي أبي وهو عائد من بيت الله الحرام العام الماضي، وأخذت من عطر أبي وتعطرت ووقفت أمام المرآة وأخبرتها بحبي لكي أرى نفسي وهيئتي وأنا أخبرها..

ومع أني قد قررت أنني سأكتب لها في دفترها الخاص ولكن قلت لنفسي وأنا أستعد وما المانع بأن أخبرها بنفسي وأرى عينيها وأنا أقول لها "أحبك" فكنت ما زلت مترددًا في الطريقة التي سأخبرها بها أمام مرآتي الصغيرة المكسورة التي احتوت كلماتي واعترافاتي، ورأيت فيها حبي الكبير لها في عيني، فعندما كنت أنظر لنفسي في المرآة المكسورة وكنت أشعر أنها مكسورة وحزينة كنت أخاف بعد أن أذهب وأخبرها بحبي؛ أُصبح مثل هذه المرآة.. مكسورًا وحزينًا.. ولكني قد عزمت وسأخبرها!!

وكان يومًا عظيمًا بالنسبة لي، فكنت خائفًا ومتوترًا وأشعر بالفرح في نفس الوقت..

فكان شعورًا ممتزجًا بكل شيء، شعورًا لا يمكن وصفه..

فكان شعوري ما بين طفل متحمس وصبي يريد أن يخبر حبيبته بحبه الكبير الذي في قلبه الصغير منذ أول يوم رآها فيه وأخذت منه حصانه لتلعب به، ولكن في الحقيقة إنها قد أخذت قلبه أيضًا.. فهو شعور مثل شروق الشمس من بحر "غزة" ومعه النصر إلى مدينة القدس فلسطين، شعور حقيقي.. فهو حب لا يعرف الترتيبات العقلية السخيفة ولا لسبب وعلة.. بل حب طفولي ممتزج بصبي مراهق يريدها حبيبة له دون النظر إلى أي شيء غير قلبها.. وخرجت من غرفتي متسللًا لكي لا يشعر أبي أنني وضعت من عطره ولكنه رآني وأنا أخرج وأشار لي بأن أذهب إليه فقلت لنفسي أنه منزعج لأنني وضعت من عطره دون استئذانه.. ولكن على العكس تمامًا فقال لي يومها "وشك ولا وش القمر، وحاطط برفان من بتاعي كمان، ماشي يا عم، حط وانبسط، رايح فين ومتشيك كدا؟" فضحكت وقلت له ذاهب إلى دروسي يا أبي،

فتبسم لي ودعا لي، وكأنه يعلم أنني ذاهب لأخبرها بحبي فدعا وقال "روح يا ابني ربنا يحقق لك مرادك.. "

فقبلت يديه كعادتي وركضت إلى الشارع وقلت له وأنا أركض "يا رب يا بابا".

وكنت في غاية السعادة بسبب أن أبي أخبرني أني جميل مثل القمر.. ولم يلُمني على أنني وضعت من عطره، وبدأت أفكر في كلام أبي وأنا في طريقي إليها.. فشعرت بانقباضة في قلبي فجأة وقلت لنفسي ماذا لو تصرفت سما بحماقة الأطفال وأخبرت أبي أو أمي أو والدتها.. وسيعرف أبي لماذا كان وجهي كوجه القمر، ولماذا وضعت من عطره وكنت أرتدي أجمل ما عندي، فشعرت بالخوف من ردة فعل أبي.. وكيف سأقنعه أني أحبها وهي صغيرة وأنا ما زلت صبيًّا صغيرًا أيضًا وكيف سأواجهه؟! فكان الموضوع في غاية الصعوبة على قلبي وملأ التردد قلبي من جديد ولكن قلت لنفسي سأخبرها.. سأخبرها..

فلقد قررت وذهبت إليها وفتحت لي أمها الباب وقالت لي "إيه القمر دا! ابني حبيبي يا ناس" فنظرت لها بإحراج وضحكت ورغم أنها

وأبي قالا إني جميل في هذا اليوم إلا أنهما وضعا قلبي في حيرة كبيرة ما بين أن أخبرها أم أنتظر وأتمهل..

وقلت لها أين سما يا خالتي فقالت لي "اطلع لها فوق" كعادتي قفزت الدرج ولكن هذه المرة كانت تختلف تمامًا، فقلبي كان يدق بشكل غير طبيعي، ووجهي كنت أشعر بسخونته واحمراره من كثرة توتري، وخصوصًا أنني قررت أن أخبرها بنفسي، وصعدت فوجدت سما تجلس على نهاية السلم وتذاكر اللغة العربية..

وعندما رأتني تبسمت وقالت لي "شكلك حلو قوي النهار دا"

فكانت هي الوحيدة التي لا أتوتر بسبب كلامها لي، عكس أبي ووالدتها تمامًا..

فلقد شجعتني على أن أخبرها فرأيت الحب في عينيها وشعرت بأن قلبها يشعر بي.

فقلت لها "أنا لابس كدا مخصوص علشانك، وعلشان جاي أقول لك حاجة مهمة" فاندهشت وقالت لي "علشاني أنا!" ثم قالت "بس تكون حاجة مهمة يا محمد" فعندما ذكرت اسمي فأصبح محمد نسيًا

منسيًّا.. لا يقدر على التحدث وزاد التوتر في عينيه وفي احمرار وجهه.. وقلت لها "هاقول لك على الحاجة يا سما" ثم قلت لها "بصي هاقول لك على حاجة بس توعديني لو زعلتك، ما تزعليش مني وما تقوليش لأي حد" فنظرت لي نظرة مليئة بالحب ولكن النظرة كانت تنتظر فكأنها كانت تقول "يا ترى ما هذا الذي سيجعلني أغضب من محمد؟ وأيضًا لا يريدني أن أخبر أمي!"

فقلت لها "سما بصي أنا...، وسكت وتلعثمت في الكلام ولم أستطع نطقها ولا حتى استطعت البقاء في نفس مكانها، فلا أعرف ما السبب ولماذا لم أخبرها وهل إخبارها أمر صعب لتلك الدرجة..؟! فكان الأمر صعبًا حقًّا، والاعتراف بالحب لها لأول مرة كان كأنني أتسلق قمة إفرست بحبال من القش.. فالموضوع صعب فوق الخيال، مع أنها مجرد كلمة من أربعة حروف.. فحاولت أكثر من مرة أن أخبرها ولكني لم أستطع.. فتوقف لساني وعُقدت عليه عقدة وقلت لها "هاقول لك بعدين.. أنا عندي درس هاروح علشان ما اتأخرش أنا جيت أشوفك واطمن عليكِ" فقالت لي "محمد قل لي والنبي عاوز إيه ما تحيرنيش"

فقلت لها "هاقول لك والله بس مش دلوقت" ثم ودعتها وركضت من أمامها وهي ما زالت تصر أن أخبرها، ولكني ركضت وخرجت من منزلهم أفكر لماذا لم أخبرها، لمَ لم أرح قلبي؟ لماذا كل هذا التردد في أربعة حروف؟ لماذا توقف لساني عن الكلام ومتى سأخبرها؟! هل كل هذا الجمال بعينيها هو ما سحر قلبي؟ أم كلامها الجميل عند ذكر اسمي؟ فكيف لا أكون شجاعًا معها وأخبرها؟! أعتقد أن الأمر أكثر صعوبة مما كنت أتوقع..

ومضيت في طريقي أتخيل ماذا سأفعل ومن أين لي بشجاعة العاشقين، فازداد الأمر حيرة وصعوبة وأصبحت أفكر في أحد يساعدني، فأنا لا أستطيع أن أخبرها بنفسي، ولم أكن أعلم أن الحب سيسيطر عليَّ بهذه الطريقة، وقلت لنفسي سأخبر أختي الكبيرة، فهي طالما ساعدتني في كتابة دروسي وقريبة لي وصديقتي، وطالما أخفت عن أبي أخطائي الكبيرة في حقها، ولكن كنت مترددًا أيضًا فبذلك أكون وضعت عنقي تحت قدميها، ويمكن أن تهددني بأن تخبر أبي ما بين الحين والآخر وأعيش في توتر، ولكن قلت لنفسي هي تحبني وتساعدني دائمًا

وخاصة أنها دائمًا كانت تقول لي بأنني أحب سما عن طريق المزاح وأنا كنت أنكر هذا تمامًا بحجة أنها طفلة أصغر مني بكثير، ولكن لمعة عين العاشق والمحب دائمًا تفضحه ولو أخفى بجميع جوارحه هذا الحب.. فكانت عيني دائمًا هي سبب فضيحتي عندما يحضر اسمها في منزلنا.. ولكن كنت مقتنعًا تمامًا بأنني ما دمت لم أخبر أحدًا بلساني فلن يعرف أحد عني شيئًا..

فذهبت إلى غرفة أختي وقلت لها "أنا عاوز أقول لك سر بس اوعديني ما حدش يعرف أبدًا" ففرحت وقالت لي أوعدك، فوجدت نفس التردد داخلي وقلت لها "هاقول لك بعدين" فقالت لي لا تخف كن مطمئنًا أخبرني وسأساعدك، فأنت أخي الصغير وأحبك كثيرًا، فكنت مترددًا ومتلعثمًا في كلامي وأبلع ريقي بصعوبة ووجهي أحمر ويبدو أن الكلام عن حبها في حد ذاته أصعب من حبها.. فتركت أختي وقلت لها سأخبرك لاحقًا وقمت وركضت من غرفتها وهي تنادي عليَّ وأنا لا أبالي..

فقلت سأذهب إلى صديقي "مشمش" فهو الملجأ الوحيد لي الآن وأحبه كثيرًا ولا أخجل منه أبدًا فهو طالما حكى لي عن ابنة خالته التي تحبه وهو متردد في أمرها أيضًا، وكنت أنصحه دائمًا وأساعده ولكن للأسف رغم أني أساعده دائمًا وأكون بجواره حينما يحتاج.. ولكني لا أعرف كيف أساعد نفسي؛ فأنا الصبي المتيم بطفلة صغيرة لم تتجاوز الثانية عشرة من عمرها، وأنا الحائر في أمري كيف أخبرها أم أخبر أختي لتخبرها، أم أخبر صديقي ليساعدني، أنا الحائر مثل طير صغير وقع من عشه على الأرض لا يعرف كيف يطير ولا يعرف كيف يعيش بدون أمه وعشه..

أنا لم أكن أخشى أن تكون لا تحبني مثلما أخشى أن تخبر أبي أو أمها، لأنها لو كانت لا تحبني كنت سأستطيع أن أجعلها تحبني، فأنا كنت الكل والجميع في حياتها، وكنت أحبها من كل قلبي، وكانت ستحبني بسبب حبي لها، ولكن شعوري كان يخبرني بأنها تحبني مثلما أحبها تمامًا..

وذهبت إلى صديقي "مشمش" وأخبرته بكل شيء ففرح بأنني أخبرته وقال لي "قُلت لك إنكم بتحبوا بعض ما صدقتنيش" فقلت له لم

أكن متأكدًا من حبي لها بعد.. وحتمًا كنت سأخبرك فأنت صديقي وأثق بك كثيرًا.. فقلت له ماذا سأفعل الآن أنا متردد وحائر كثيرًا.. فقال لي إن لديه فكرة جيدة.. فقال.. سأخبر ابنة خالتي أن تخبرها وهي صديقتها ومعها في نفس الفصل وتجلس بجوارها في مقعد المدرسة ففرحت بالفكرة ولكن قلت له من الممكن أن تخبر أصدقاءها وينفضح أمري، فقال لي لا تخف سأشدد عليها ألا تخبر أحدًا.. فقلت لا لا سأحاول أن أخبرها بنفسي وأخذته وجلسنا أنا وهو على ضفاف النهر في مكاننا المفضل وجلسنا نضحك وكنا نأخذ معنا كتبنا لكي نستذكر دروسنا أيضًا هناك.. وبعدما انتهينا ذهبت إلى المنزل فوجدت أختي تنتظرني لأحكي لها سري وتلح عليَّ بأن أخبرها.. فأخبرتها بكل شيء وبحبي الكبير لسما فقالت لي وهي متبسمة.. عيناك الصغيرتان كانت دائمًا تفضحك يا صغيري.. فتبسمت محرجًا منها وقالت لي.. هي ما زالت صغيرة وأنت أيضًا، اصبر حتى تكبرا وتفهما معنى الحب.. وبعد ذلك أخبر أباك ليقوم بخطبتها لك، فقلت في نفسي كيف سأصبر على كل ذلك...

وكيف سأستطيع أن أصبر وأتمالك نفسي دون أن أخبرها.. فقلت لها سأفعل ذلك حتى لا تحدث أي مشاكل بيننا، وهي ما زالت صغيرة وأنا أيضًا سأصبر وأسمع كلامك وأقنعتها أنني مقتنع بكلامها.. ولكن في الحقيقة أنا تظاهرت أمامها أنني اقتنعت خوفًا من أن تخبر أبي وجلست أفكر فقلت سأحاول أن ألمح لسما بطريقة غير مباشرة وقلت سأخبرها أني أحب فتاة من سني وأريد أن أعترف لها بحبي وأقص لها عن تلك الفتاة ومنذ متى وأنا أحبها وسآخذ رأيها بحبي لتلك الفتاة.. وفجأة دق باب منزلنا وذهبت لأفتح الباب فوجدته "مشمش" صديقي يقول لي هناك حالة غرق في ترعة البلدة والجميع يقول.. "الجنيَّة خدت العروسة الجنيَّة خدت العروسة"، فكانت حكاية الجنيَّة حكاية قديمة منذ قديم الأزل، وكانت حادثة مؤسفة تحدث كل عام في قريتنا حيث يغرق أجمل طفل وطفلة في القرية، وكانت هناك حكاية مشهورة بين الجميع في البلدة بأن الجنيَّة تخطف طفلًا وطفلة وتزوجهما إلى بعضهما البعض تحت الماء، وكنت دائمًا أخاف على سما من مثل تلك الحوادث وكنت أنصحها أن تمشي بعيدًا عن شاطئ تلك الترعة، لأنها كانت جميلة وشعرها طويل

وكثيف وناعم وكل أهل البلدة يقولون إنها تحب مثل أولئك الفتيات الحسناوات صاحبات الشعر الطويل، فركضت مع "مشمش" وقلت له "اوعى تكون سما، اوعى تكون سما يا صلاح بالله عليك قل لي الحقيقة" فقال لي والله ما اعرف هي مين بس مش هي.. فركضت أنا وهو نحو الترعة والرعب في عيني وقلبي يدق بشدة والخوف يقتلني والدموع محبوسة في جفني وعقلي الباطل يشرد ويتخيل الموقف وقدمي تركض بأقصى سرعة عندي.. فلا أعرف كيف كنت أركض بهذه الطريقة، فلقد سبقت "مشمش" بكثير من الخطوات حتى وصلت وسألت الناس من تلك الفتاة التي خطفتها الجنية.. فلم يكن أحد يرد عليَّ.. ولا أحد يعلم والجميع يحاول أنا يخرجها من الماء والبلدة كلها تلتف حول المكان وجاء طفل صغير يقول إنها أخته وكانا يلعبان على حافة الترعة، وإذ فجأة تجلس أنثى على الترعة تسرح في شعرها الطويل الذي كان يصل إلى الماء ويسبح فيه من كثرة طوله، وعينها الزرقاء التي تشبه السماء الصافية، وأن نصف جسدها من الأسفل يشبه ذيل سمكة كبيرة جدًّا، وفجأة قفزت في الماء فعندما رآها ركض هو وأخته ولكنها أمسكت بقدم أخته

وهي تجري وسحبتها إلى الماء حتى اختفت هي وأختي ورجع إلى الماء يبحث عن أخته فلم يجدها، فخاف وهرب حتى لا تسحبه إلى الماء أيضًا فذهبوا إلى أم الطفلة وأحضروها..

وكانوا كل عام يحضرون أم الطفل أو الطفلة المسحوبة إلى الماء وتنادي أمها بصوت عالٍ على اسمها فتقوم "الجنية" بقذفها إلى أعلى الماء فترتفع في الهواء ثم تسقط في الماء.. تمامًا وكأنك تركل كرة إلى الأعلى بكل قوتك ثم تسقط في الأرض وينزل أحد من أهل القرية بقارب صغير يخرج الطفلة من الماء.. وجاءت أم الطفلة وندهت عليها بصوت عالٍ فاندفعت الطفلة من الماء إلى الأعلى في مشهد مرعب أراه لأول مرة في حياتي بأم عيني.. فكنت دائمًا أسمع عنه وكنت أقف متوترًا بطبيعة حالي، ولكن عندما رأيته زاد توتري وخوفي الشديد فلم أتخيل أنني سأرى منظرًا مثله في حياتي...

❋ ❋ ❋

الفصل الخامس

خرجت الطفلة ميتة من الماء في وسط حزن شديد من أهل القرية، وكان على وجها علامات كفوف يد كبيرة.. وكأن أحدًا كان يضربها بقوة تحت الماء.. وقلت لنفسي إن سما عندها بعد قليل درس سأذهب إليها وأنبه عليها مرة ثانية أن تمشي بعيدًا عن الترعة، ودائمًا تمشي بصحبة زملائها.. فذهبت إليها وأخبرتها بما حدث في القرية منذ قليل ونبهت عليها جيدًا وقلت لها "خلي بالك بتحب اللي شعرهم جميل شبهك" فقالت لي سما "أنا خايفة يا محمد خلاص مش هاخرج من البيت" فقلت لها لا تخافي لكن خذي حذرك ولا تمشي بجوار شاطئ الترعة بمفردك ولا تمشي والطريق خاليًا، وقلت لها هيا بنا سأوصلك إلى مكان الدرس وأخذت سما وخرجنا.. كنت في غاية السعادة أنني معها.. لكنها كانت سعادة تمتزج بالخوف والتوتر مما حدث..

سما بدأت تكبر وأنا أيضًا.. وسألتني سما "ألن تقول لي ماذا كنت تريد أن تقول يوم أن ركضت وتركتني أنادي عليك".. فقلت لها "لا

شيء يا سما.. فقط كنت أمزح معكِ بالكلام".. فقالت "لا لا هناك شيء تخفيه.. فأنا أعرفك جيدًا.. أخبرني يا محمد بما تريد أن تقول".. فقلت لها "هناك شيء سأخبرك عنه ولكن في الوقت المناسب".. فقالت لي "وما الوقت المناسب؟".. فقلت لها "لما تكبري يا سما انتِ لسَّا صغنونة".. فقالت لي "أنا كبيرة يا محمد والله مش صغيرة خالص، أنا اللي قصيرة" فضحكت وقلت لها "انتِ قصيرة خاالص" وضحكت مستهزئًا على طولها فضربتني وقالت لي "والله ما انا ماشية معاك" فركضت وركضت أنا أيضًا وقلت لها "اقفي يا سما الجنيَّة هتخطفك" فوقفت وقالت لي "أنا طويلة.. بص" وكانت تقف على أصابع قدميها فقلت لها "طويلة خالص يا سما بس يلا بينا" وأكملنا طريقنا وقبل الوصول إلى مكان الدرس وجدنا زملاءها البنات في الطريق، فنظرن إلينا وجلسن يتهامسن ويتكلمن بصوت منخفض وسمعت إحداهن تقول "يا بختك يا سما عندك حد بيحبك ويوصلك الدرس كمان!" فأنا قلت لنفسي كيف عرفت تلك الفتاة أنني أحبها وخجلت جدًّا عندما سمعت هذه

الهمسات بين الفتيات وقلت لسما "سأذهب أنا، لقد اقتربتِ من المكان وأكملي الطريق مع أصدقائك" فأنا كنت خجولًا، وفي نفس الوقت خائف أن يقول أحد على سما كلامًا غير مقبول، ونحن نعيش في قرية تنتشر فيها الأخبار وكأنها حمام زاجل..

ومر الوقت ومرت الشهور وأنا ما زلت مترددًا في إخبار سما بحبي لها.. فقضيت كل حياتي في ترتيب دروسي خلف دروسها كل عام وأن أحصل على درجات جيدة حتى لا يغضب أبي مثلما حدث من قبل، وأن أساعد سما في واجباتها وشرح دروسها حتى مر الوقت وأصبحت في آخر سنة من الشهادة الإعدادية.. فكانت مرحلة مهمة.. وبدأت أنضج فيها أكثر وتظهر عليَّ ملامح الشباب، وتتغير ملامح وجهي، وأصبحت أكثر طولًا عما كنت.. فكل شيء بدأ يتغير من حولي.. فدخل إخوتي الكلية وأختي انتقلت إلى المرحلة الثانوية وأبي ظهر الوقار في بداية لحيته من شعر أبيض.. الوحيدان اللذان لما يتغيرا كثيرًا هما قلب أمي الطيب الذي طالما أغضبته وعاندته فما زال طيبًا كما هو.. لم يتغير ولم يمل مني ولا من تصرفاتي الخاطئة الكثيرة.. وحبي لقلب سما..

فكل ما تغير في سما ملامح وجهها أصبحت أكثر طفولية وبراءة مع أنها تكبر.. وازاد طولها ولكن ليس بكثير.. وارتدت الحجاب الذي طالما تشاجرت معها لكي ترتديه، وأخيرًا انتهيت من مشاكل شعرها مع رفيقاتها في الفصل...

ثم بدأت أدرس بجدية وأذاكر، في هذه المرحلة أكثر من أي مرحلة أخرى لكي أدخل الثانوية العامة..

ولكن تفكيري في سما كان بمثابة حرب بداخلي، لأنه كان أكثر زملائها يحبونها أيضًا، فكنت أغار كثيرًا عليها منهم، وكان دائمًا صديقي "مشمش" يخبرني بتلك الأخبار وأنا كنت أعرف ذلك من خلال تصرفاتهم معها، ولكن هي كانت لا تهتم بأحد غيري، ولا تبالي من كلامهم وتصرفات الصبيانية التي كانت تزيد من عصبيتي كثيرًا، لكني كنت أشعر دائمًا بأنني مميز عن الجميع، فأنا كنت الوحيد الذي يتكلم ويلعب معها، ونذاكر سويًّا، وكنت أنا أفضل صديق لديها، وكنت أشعر أيضًا بحبها تجاهي من خلال لمعة عينيها دائمًا في كلامنا، ولكن دائمًا

شعور الغيرة كان يسيطر عليَّ حتى من أقاربنا.. ولو رأيت أحدًا من أولاد خالتي يتحدث معها أو يلعب فكنت أغضب كثيرًا بيني وبين نفسي، وكنت أذهب إليها وأحاول إشغالها عن أي أحد؛ فأنا كنت غير الجميع.. لقد أحببتها من أجل غيابها الذي أثر في قلبي قبل وجودها..

فأنا كنت مختلفًا عن الجميع؛ فأنا حبي دائم.. أنا لا أشبههم.. فأنا كنت الأخ الأكبر لها، والأب والصديق والأخت أيضًا، فأنا كنت أحاول دائمًا أن أكون الجميع..

وفي يوم استيقظت من النوم على صوت أمي وهي تقول "اطلعي صحيه يا سما، دا لسَّا نايم".. فقمت مسرعًا كي لا تراني سما وأنا مستيقظ وذهبت إلى الحمام وغسلت وجهي وصففت شعري ودخلت وجدتها في غرفتي تجلس على مكتبي وتقلب في كتبي.. فدخلت وقلت لها مازحًا "حد ييجي لحد يصحيه بدري كدا" فقالت لي "بدري إيه يا محمد؟ إحنا الضهر!" وضحكت وقالت لي "ما كل هذه الحروف التي تملأ مذكراتك وكتبك وحتى مكتبك" فقلت لها وأنا أحاول أن أتهرب منها "دا حرف باحب أكتبه" قالت لي "لا هذا ليس مجرد حرف تحب أن

تكتبه، قل لي ولن أخبر أحدًا" ثم صمتت قليلًا وقالت "صحيح، انت مش هتقول لي الحاجة اللي مصمم تقولها لما أكبر شوية؟!"

فقلت لها "عندما تكبرين سأخبرك حتمًا".. ودق قلبي وقلت لنفسي لمَ لا أخبرها الآن.. وقلت لها "سما.. أريد أن آخذ رأيك في شيء".. وقلت لها "إني أحب بنتًا جميلة، وقلبي طوال الوقت يراها أمامه ويشعر بها، وأريد أن أخبرها، ولكني متردد كثيرًا، وحاولت أن أخبرها كثيرًا ولكني خائف ولا أعرف ما سبب خوفي الحقيقي، وعندما قررت أن أخبرها وقف الكلام على لساني ولمعت عيني وشعرت بلمعة عينيها أيضًا، ولكن فجأة ركضت من أمامها خجلًا وترددًا، والكلام أصبح ثقيلًا على لساني وقتها، ولم أستطِع أن أخبرها وقتها".. فلمعت عيناها بشدة وشعرت أنها فهمت أنها هي تلك الفتاة التي أحبها واحمرت وجنتيها وقالت لي "من تلك الفتاة؟ هل أعرفها؟ هل هي ابنة عمك أم زميلتك في الدروس والمدرسة؟"، كانت تتكلم وكأني صديقها وعينها تلمع وأنا أرى نفسي بداخل عينها أنها قالت لي أحبك أيضًا، وهي تقول "هل أعرفها؟ هل هي ابنة عمك" شعرت الحب في عينيها ودق قلبي

دقات حب جعلتني لا أستطيع الوقوف، فجلست وقلت لها "يا سما هي زميلة لكِ في نفس صفك، وأنا أخاف أن أخبرها فتخبر أبي أو أمي أو أمها، وفي نفس الوقت أريد أن أخبرها فقط بحبي وإحساسي وقلبي، ولكني أتردد ويتوقف الكلام على لساني دائمًا.."

لم أكن أعلم أبدًا أن الحب يستطيع أن يسيطر علينا بهذه الطريقة فقالت لي سما والحزن في عينيها "هي زميلتي فعلًا؟" فشعرت بحزنها وقلت لها "أنتِ تعرفينها جيدًا، وهي تشبهك تمامًا، شعرها جميل وعيناها تلمعان بالحب، وضحكتها مثل دوار شمس يخطف القلب عندما يلتف مع شمسه" وصمت قليلًا وقلت لها "صحيح، لماذا أتيتِ يا سما؟" قالت لي "لتصلح لي بعض المشاكل في جهاز اللاب توب" وقالت لي فجأة وبحزن وبدون مقدمات "هي مين البنت زميلتي اللي بتحبها دي؟" فقلت لها "سأخبرك يا سما، أنت صديقتي وسري وسأخبرك" وقلت لها "هيا لكي أصلح جهاز اللاب توب" وجلست وقلت سأستغل الفرصة وأشغل أغنية وكانت تقول الأغنية "وباحب النسمة اللي تعدي على رمشك مرة وعلى خدي" وأنا أغني معها بصوت

منخفض وأنظر إليها، فكانت حزينة بشكل كبير، فقلت وأنا أكمل عملي في جهاز اللاب توب الخاص بها "سما هل أخبرها أنني أحبها أم لا؟" فقالت لي "قل لي من هي وأنا سأخبرها" فصمت وصمت لساني وقلت لها "يعني هي لو عرفت مش هتزعل ولا هتقول لحد؟" قالت "لا على العكس، فأنت طيب يا محمد وهي إن عرفتك جيدًا وذاكرت لها وكنت بجانبها مثلما تفعل معي ستحبك كثيرًا" ففرح قلبي ودق فهي كأنها اعترفت لي بحبها وقلت لها "سأخبرها بنفسي يا سما" وأكملت عملي على جهاز اللاب توب وأنا أقول لنفسي سأخبرها وقلت لها "سما" فنظرت لي بانتباه وهي صامتة.. وكأن صمتها معدٍ.. فعاد يعجز لساني من جديد عن نطق كلمة من أربعة أحرف واحمر وجهي وقلت لها "انتهيت من تصليح جهازك" وقلت لنفسي هي تعتبر قالت لي أنها تحبني وأنا لمحت لها وحزنت كثيرًا عندما عرفت أنها لست هي.. فلمَ أصمت؟ ولمَ لا أتحدث؟ ولمَ الاعتراف بالحب أمر في غاية الصعوبة؟! أمر تتهيأ له جيدًا وتستعد ثم يخذلك...

الأمر في غاية الصعوبة.. سمعت صوت سما حولي وهي تقول لي "يلا وصلني يا محمد انت سرحت في إيه" فوجدت سما تدخل اللاب

في حقيبتها وتستعد للرحيل، وأنا أفكر ولا أشعر بأي شيء.. ووصلت سما وقلت لها ونحن على قرب من منزلها "سما.. سمعتِ الأغنية اللي أنا شغلتها؟" قالت لي "نعم هي جميلة جدًّا" قلت لها "لقد قمت بتشغيلها من أجلك" فرأيت الفرحة في عينها التي كانت حزينة وقالت لي "من أجلي أنا؟.. لماذا من أجلي؟!" فقلت لها "لكي نسمعها سويًّا" وقلت لها "قد وصلنا" وكعادتي ركضت في الشارع وهي تنادي عليَّ.. فأنا لا أفهم لماذا أهرب منها بهذا الشكل ولا أستطيع المواجهة.. لا أفهم لماذا هي صعبة تلك الخطوة.. لم أكن جبانًا في يوم أبدًا إلا في إخبارها بحبي.. ومضيت في طريقي إلى المنزل وقابلت أحد أقاربها الذين قد اتهموا في قضية سرقة الآثار من قبل، وسألني عن أبي قلت له أبي في العمل يأتي بعد المغرب وتركته ومشيت وقلت في بالي.. يا ترى ماذا يريد هذا الشخص من أبي؟ وجاء في بالي من الممكن أنه يريد أبي في جلسة عرفية أو حل مشكلة ما.. وأكملت طريق عودتي للمنزل...

❋ ❋ ❋

الفصل السادس

يمر الوقت وتمر الأيام ما بين تفكيري في سما وانشغالي في دراستي، وانتهت الدراسة في المرحلة الإعدادية حتى دخلت المرحلة الأهم في حياتي وهي مرحلة تحديد الأهداف والمستقبل، مرحلة لها رونقها الخاص، كنت أفكر دائمًا متى سأذهب إلى الثانوية العامة وأكبر وأخرج على راحتي من المنزل فكان من يذهب إلى الثانوية العامة في منزلنا يصبح أكثر نضجًا وأكبر سنًّا؛ فهي مرحلة فاصلة من حياة الصبي إلى حياة الشباب لها معاملتها الخاصة..

فكنت أخرج مع أصدقائي وأسهر معهم لا أعامل معاملة الصبية.. كنت حرًّا في تصرفاتي لا أحد يتحكم في دخولي وخروجي.. لا أدخل متسللًا من الباب الخلفي للمنزل خوفًا من تأخيري أو حتى من ملابسي المتسخة.. كم انتظرت لكي تأتي تلك الأيام.. وبالفعل جاءت.. ولكن عندما انتهت الإجازة وبدأت الدراسة.. فكان الحلم الذي بداخلي في

الخروج والدخول على راحتي وخروجي مع أصدقائي ودخولي لمنزل سما والجلوس معهم واللعب والضحك معهم في المنزل والخروج مع صديقي "مشمش" الدائم ولعبنا للكرة والبلايستيشن وحكاياتنا الدائمة، كل هذا تحول إلى كابوس.. المواد التي تبدو أكثر تعقيدًا ودروس كثيرة ومواد مختلفة.. الأمر لم يكن كما أتخيل أبدًا، فقلت سأجتهد في فترة الدراسة وستمر سريعًا وستأتي الإجازة ثانية وسأخرج على راحتي وكل شيء سيصبح على ما يرام...

كان بداخلي حلم داخل هذه المدرسة الجديدة، وهو أن أدخل كلية الإعلام وفنون الاتصال.. فقد كان شغفي بها كبيرًا جدًّا منذ ذلك التقرير الذي قمت به في الشارع وأنا صغير كبحث لمكتبة المدرسة.. من يومها وأنا شغفي دائم بهذا المجال وهذه الكلية بالتحديد.. وكنت أعلم جيدًا أن نقطة البداية لذلك الحلم وتلك الكلية.. هنا.. في هذه المدرسة.. وكنت أركز في دروسي جيدًا، وأمام عيني دائمًا كلية الإعلام.. وسما الصغيرة التي كانت لا تفارق أحلامي أيضًا.. وعندما بدأت الدراسة كنت أتمنى دائمًا أن أكون أصغر في السن أو تكون سما أكبر لنكون معًا في

نفس الصف والدرس والدراسة.. لأن مدرستي الثانوية الجديدة كانت مشتركة.. وبدأت الدراسة وكان طلاب الصف الأول الثانوي في الفترة المسائية.. فكانت فترة سيئة للأسف؛ لأن معظم دروسي كانت في التوقيت الصباحي وبعد انتهاء الدراسة.. وكانت مرحلة مختلفة عن دراسة سما.. فالمدرسة مكانها بعيد والمعلمون مختلفون، فلم يكن بإمكاني أن أجعل دروسنا خلف بعضها البعض كما كنت أفعل، ولا أستطيع أن أراها كثيرًا وأذاكر لها بسبب كثرة دروسي والمواد التي أدرسها وتوقيت المدرسة المسائي.. فكان اليوم الوحيد الذي أراها فيه هو يوم الجمعة.. وليست كل جمعة؛ لأن ذلك اليوم كان مليئًا بالدروس.. لكن كنت أحاول دائمًا أن أراها في الصباح الباكر وأجلس معها وأذاكر لها دروسها وأشرح لها المواد الصعبة وخاصة مادة العلوم.. فهي كانت لا تحبها كثيرًا.. كان يوم الجمعة بالنسبة لي هو يومي المفضل في كل الأيام رغم أنه كان يوم الإرهاق والدروس الكثيرة والمذاكرة الكثيرة.. لم تكن جمعة بمعناها للراحة والترفية؛ بل كانت وكأنها ثلاثاء في وسط الأسبوع..

لكن كنت أحب الجمعة كثيرًا.. فكانت هي اليوم الوحيد الذي يجمعني بسما..

يمر الوقت وتمر الأيام وأنا أكبر وسما تكبر وأصبحت أكثر طولًا وجمالًا، لا شيء يتغير بداخلي تجاه سما إلا أنني يزيد حبي ويتعلق قلبي بها، ويزداد الأمر صعوبة في إخبارها بحبي.. رغم أنها نضجت وبدأت تتفهم الأمور.. ورغم أنني كنت أشعر أنها تحبني.. لكن كل هذه الأمور المحفزة لي أن أخبرها لم تساعدني في إخبارها.. فالموضوع كلما تأهبت له رجعت ألف خطوة للوراء أمام عينيها البنيتين.. لكن كل تصرفاتي معها وكل كلامي وكل نظراتي تخبرها منذ أن رأيتها وهي طفلة أني أحبها كثيرًا.. وهي أيضًا أخبرتني بحبها من نظرتها وكلامها وغيرتها وحزنها الذي رأيته في عينيها عندما أخبرتها أنني أحب زميلتها في المدرسة...

ورغم كل الظروف التي منعتني أن أرى سما كل يوم كما كنت أفعل إلا أنني كنت أستيقظ باكرًا وأخرج كل يوم في تمام السابعة وعشر دقائق قبل طابورها الصباحي بثلث ساعة لكي أذهب إلى آخر القرية وأشتري من دكان صغير هناك ورقًا أبيض ، أو أذهب لكي أشتري الخبز بدلًا من

أمي، مع أنني كنت لا أحب أبدًا أن أذهب لشراء الخبز لكن فعلت لكي أراها وهي ذاهبة للمدرسة في الصباح الباكر.. كنت أرتب كل يوم من الساعة السابعة إلى الساعة السابعة والنصف أن أخرج وأمشي في الطريق التي تذهب منه إلى المدرسة، وجلست أسبوعًا حتى تأكدت أنها تذهب كل يوم من وقت السابعة وعشر دقائق إلى السابعة والربع.. فكنت أذهب كل يوم في ذلك الميعاد لكي أراها وكان من السهل أن أسألها متى تذهبين إلى المدرسة.. ولكن كنت أخاف عندما تراني تتذكر سؤالي لها وتعرف أنني أذهب لأراها كل صباح.. وتعرف أنني أحبها.. كنت غريبًا.. كيف لا أريدها أن تعرف أنني أحبها.. وكيف أريد أن أخبرها بحبي؟! كنت غريبًا ومترددًا.. لكن كل ما كنت أتأكد منه أن دقة قلبي لا تستطيع التخلي عنها.. وكنت أذهب كل يوم وأراها في ذلك الوقت، وإن تأخرت قليلًا كنت أعود إلى نفس الطريق وكأني نسيت شيئًا وأرجع مرة ثانية وأتمهل في خطوتي لكي أراها.. الحب كان غريبًا.. يجعلنا ننتظر ونفكر كيف سنراهم ولو من بعيد.. يجعلنا نجلس على حافة الطرقات

ونقف ونشتري سلعة لا نحتاج إليها لأنهم فقط يمرون من هناك، الحب يجعلنا نتصرف بدون عقل.. قلب ينجذب ويريد فقط أن يرى حبيبه.. أيًّا كانت الوسيلة وصعوبتها.. فالقلب العاشق تمامًا كالطائر الصغير الذي ينتظر أمه طوال اليوم لتعطيه لقمة في فمه.. هو كذلك تمامًا.. ينتظر طوال اليوم ليأخذ نظرة لقلبه يهدئ بها دقاته ويسكن بها روحه..

وعندما كنت أراها في الزي الكحلي والأبيض الرسمي لمدرستها.. كنت أشعر أنها أصبحت أكبر وأجمل، رغم أنها كانت أصغر من جميع زميلاتها اللواتي في سنها.. وتبدو أصغر لكن كانت أجمل من فيهن.. كنت أبتسم لها في الصباح الباكر وأقول لها "صباح الخير يا سما" بصوت منخفض لكي لا يسمعنا أحد من المارة في الطريق، وكانت تبتسم أيضًا وتمر في طريقها إلى مدرستها.. وكنت كل يوم أكرر الاستيقاظ مبكرًا والذهاب في طريقها لكي أراها، وبدأت أتعلق برؤية سما وأركز في دروسي.. لكن هي طوال الوقت أمام عيني وفي جوف قلبي لا أنساها ولو لثوانٍ.. وفي يوم وأنا عائد من المدرسة متأخرًا نادت عليَّ أمي وقالت لي "أريد التحدث معك في موضوع، اذهب لدروسك وعندما تنتهي

منها تعالَ لنتحدث سويًّا" فقلت لأمي "حاضر يا أمي" لكن ليس من عادتها أن تتحدث معي أو تقول لي أريد التحدث معك.. فكان أخي الأكبر هو دائمًا في تلك الصورة، وهو صديقها، وطالما تتحدث معه.. فقلت لنفسي يا ترى ماذا تريد أمي؟ ولم يأتِ في خاطري أي شيء حتى رجعت إلى المنزل ووجدتها تنتظرني، وقالت لي "أنت كبرت الآن وأصبحت رجلًا، وأريدك أن تهتم بدراستك أكثر، وإن حدث شيء لك تحكي لي فأنا أمك وسرك وأخاف عليك، وسأنصحك وأخاف عليك أكثر من أي شخص آخر" فقلت لها "أكيد يا أمي لا تقلقي عليَّ فأنا بخير دائمًا" ولكن سألت نفسي لماذا تقول لي أمي هذا الكلام؟ وقالت أمي وأنا أفكر "لكن يا عزيزي أنا أشعر أنك متغير تلك الفترة ودائمًا مشغول وتفكر، وجدت حروفًا مكتوبة على مكتبك وكتبك وأشعر أنك تحب" وضحكت بمزاح معي وقالت "احكِ لي، من هي وابنة من لكي أخطبها لك عندما تكبر" لكن أنا على العكس تمامًا احمر وجهي وأنكرت ما قالته أمي وقلت لها "لا يا أمي على العكس؛ أنا أركز في دروسي لكي أدخل كلية الإعلام" لكن كنت مرتبكًا من كلام أمي وتفضحني عيني وملامح وجهي وقلت لها "هاقوم يا ماما بقى ورايا مذاكرة كتير"

وقالت لي أمي "تفضل، لكن لنا في الحديث بقية" ودخلت إلى غرفتي أسأل نفسي، هل عرفت أمي من هي التي أحبها؟ وقلت لنفسي لا بد أن أركز أكثر ولا أشعر أحدًا حولي بأني أحب.. وفات الوقت وانتهت السنة الدراسية الأولى من الثانوية، وانتقلت للسنة التي بعدها وأنا أذاكر وأجتهد أيضًا.. حتى جاء يوم وأنا خارج وذاهب إلى منزل سما فنادت عليَّ أمي وقالت لي "أريد أن أتحدث معك" قلت لها "تفضلي يا أمي" وأخذتني ودخلنا غرفة أبي وأغلقت الباب وجلسنا على أريكة صغيرة وقالت لي أمي "أريد أن أسألك عن شيء وتقول لي الحقيقة" قلت لها "تفضلي يا أمي" قالت لي "هل تحب سما؟" فاحمر وجهي كثيرًا حتى شعرت أن حرارة تخرج منه، وتلعثمت في الكلام ولا أعرف بماذا أجيب على أمي، وزادت دقات قلبي أكثر وأنا صامت قليلًا وأمي تنتظر إجابة مني فقلت وأنا متردد هل أخبرها بالحقيقة؟.. أم ماذا أفعل؟.. هل ستغضب وستعتقد أنها ستشغلني عن دروسي؟.. ماذا أفعل؟!.. فقلت سأنكر الأمر إلى أن أدخل الجامعة وعندها سأخبر أمي.. وقلت لها "ماذا تقولين يا أمي؟ سما بنت خالتي.. أختي الصغيرة ونحن أصدقاء منذ أن كنا أطفالًا، وأنا أحبها مثل أختي تمامًا لا أكثر من ذلك.. لماذا تقولين

هذا؟" وسألتها وأنا أتعجب في بالي كيف عرفت أمي؟.. هل تفضحني عيني عند وجود سما في منزلنا إلى هذا الحد؟! فقالت لي أمي "أنا ما حدش قال لي أنا حاسة بكدا وأنا خايفة عليك" فزاد وجهي احمرارًا وقلت لها "لا تقلقي يا أمي أنا أركز في دراستي وسما أختي الصغيرة لا تقولي هذا الكلام" فقالت لي أمي "أريدك أن تدخل كلية الإعلام.. والحمد لله أنك لا تحب سما لأن سما ليست مناسبة لك، ولا نريد أن تحدث مشاكل بيننا وبين أمها لأنها تحبني كثيرًا، ونحن نحبها ولا نريد أن تكون أنت وسما السبب في تعكير الصفو بيننا" فسكت فأنا لا أفهم كلام أمي ولا أعرف لماذا سما ليست مناسبة لي، وفي نفس الوقت أمي تحبها وتحب أمها، وكيف سأكون أنا وسما سبب تعكير صفو ود العائلتين لو كنا نحب بعضنا البعض، وبالفعل فأنا أحب سما وأشعر كثيرًا بحبها لي.. وسألت نفسي يا ترى ماذا كانت تقصد أمي بكلامها هذا؟ لماذا تقول لي أننا لسنا مناسبين لبعضنا؟ وخفت أن أسأل أمي لماذا نحن لا نتناسب رغم الود والحب الكبير بين الأسرتين لكن شعرت أنها ستفهم أني أحبها.. وقلت لأمي "سأذهب يا أمي حتى لا أتأخر على دروسي" وقمت وأنا أفكر في كلام أمي لماذا قالت لي هذا الكلام..

وشعرت بحزن شديد داخل قلبي.. فكنت ذاهبًا إلى سما وبعدها كنت سأذهب إلى الدرس.. وذهبت إلى سما وسلمت عليها ولكن تظهر على وجهي علامات الحزن.. فكلام أمي جعلني لا أستطيع التفكير.. الحزن يسيطر عليَّ وكانت أول مرة أشعر بحزن شديد كهذا.. لأني شعرت بخوف شديد بأني من الممكن أن أفقد سما.. وكان هذا الشعور يراودني للمرة الثانية.. روداني وانا صغير عندما رأيتها أول مرة وكنت خائفًا ألا أراها مرة ثانية.. لكن بعدها علمت بأنها ستقيم معي في القرية، وطار قلبي يومها من السعادة، ووقتها كان شعور طفل خائف أن يفقد روحًا صغيرة أحب اللعب معها ورآها تختلف عن جميع الأطفال.. لكن اليوم شعرت من كلام أمي أن هناك مشكلة كبيرة تمنعني من أن أحب سما وأتزوجها.. سيطر الخوف على ملامح وجهي والحزن على قلبي فأنا لم أضع أبدًا أمامي أي احتمال لفقد سما أو أن تكون لأحد غيري؛ فأنا تعلقت بها منذ أن فتحت لها الباب وكبر حبي لها حتى أصبحت اليوم في السابعة عشرة من عمري.. الأمر ليس سهلًا أبدًا على قلبي.. فأنا مشتت من كلام أمي الذي جعلني أقول لنفسي.. من أين أمي تحبها وتحب أسرتها كل هذا الحب وأراها بعيني تحتضنهم دائمًا وتقف بجوارهم في

الشدائد.. ومن أين لا يجوز أن أحب سما وإن حدث ذلك سأعكر صفو الأسرتين.. يا ترى بماذا تفكر أمي؟.. لم أتخيل أبدًا أن أفقد سما، حتى وإن كانت تحبني مثل أخيها، فكنت أثق كثيرًا في أني أستطيع أن أجعلها تحبني بحبي لها وحنيتي عليها، وهذا في أسوأ الأحوال، لكن لم أفكر أبدًا في أن أفتقد سما...

شعور الحزن لأول مرة في حبي لسما.. أكد لي كم أنا أحبها ومتعلق بها! فحزن المحب خوفًا من فقد حبيبه من أقوى شيم الحب الحقيقي.. فالمحب لا يتحمل فقد الحبيب.. ورغم كل هذا التفكير وكل هذا الحزن الذي يشعر به قلبي.. لم تنطفئ لمعة عيني وأنا أسلم عليها.. لكن قالت لي "لماذا وجهك حزين هكذا؟ هل أنت متعب أو مرهق يا محمد؟!"..

❋ ❋ ❋

الفصل السابع

قلت لها "لا عليكِ يا سما أنا بخير، فقط لم أنم جيدًا ليلة أمس" فابتسمت لي وقالت "لكن أنا أشعر أنك لست بخير.. هل حدث شيء معك؟ أخبرني، أراك قلقًا ووجهك حزين دائمًا.. ضحكتك هذه المرة مختلفة تمامًا عن باقي المرات.. ليست قلة نوم.. احكِ لي، ماذا حدث معك؟ سأقلق عليك هكذا إن لم تخبرني ما بك" فصمت وهي تنتظر ردي وأنا لا أعرف ماذا أقول لسما وأنا لا أعلم ما سبب حزني الرئيسي من كلام أمي، فكيف أخبر سما بسبب حزني وأنا لم أتناقش مع أمي في السبب ولا أعرفه، وأيضًا لم أخبرها بحبي، فقلت لها "يا سما صدقيني لا شيء؛ فقط هو إرهاق من قلة النوم وكثرة المذاكرة والدروس، سأنام اليوم جيدًا وكل شيء سيصير على ما يرام" فقالت لي سما "هاعمل نفسي مصدقاك يا محمد" وضحكت ضحكتها الجميلة وضحكت أيضًا لها وقلت "لا صدقيني يا اختي" وعَلِقَت في أذني جملتها وهي تقولي لي

"ماذا حدث معك؟ سأقلق عليك هكذا" وكأنها تخبرني من حين إلى الآخر بأنها تحبني وتلمح لي أيضًا بحبها.. لم أكن متأكدًا أنها تحبني مثلما أحبها.. كان مجرد إحساس بداخلي يروداني من حين لآخر، لكن كان دائمًا إحساسي يأخذني إلى اليقين.. لم يضيعني أبدًا؛ فهو دائمًا كان شعاع النور بداخلي.. ينير قلبي وينبه عقلي لِمَا سوف يحدث..

وقلت لسما "سأذهب لأن أبي يريد مني أن أذهب إلى أولاد عمي وأخبرهم ببعض الأشياء، سأراكِ لاحقًا"

ومضيت في طريقي وأنا أفكر في كل شيء يحدث من حولي.. من تصرفات أمي الغريبة التي تعامل سما بكل طيبة وحنية.. ومع ذلك تقول أن حبي لها سيعكر صفو الأسرتين.. ومن حبي لسما وترددي الشديد في إخبارها بحبي وهل سما تبادلني نفس شعوري أم هو حب من طرف واحد لا يعرفه أحد غيري.. أصبحت مشتتًا بشكل أكبر وأنا لا أعرف كيف أفكر وكيف أحل هذه المشاكل.. فأنا في مرحلة صعبة تحتاج إلى مذاكرة وتركيز أكثر من ذلك؛ لأنها سنة حاسمة بالنسبة لي.. فقلت لنفسي سأحاول أن أنسى سما وكأني لم أحبها.. لا أريد أن تحدث

مشاكل بين الأسرتين بسببي.. وسأريح بالي من كل هذا وأركز في دراستي فقط.. أعتقد أن هذا الحل هو الحل الأمثل الذي يجعلني أمشي في طريقي دون أي مشاكل.. وقلت لنفسي هل سأقدر على نسيان سما بكل هذه السهولة؟! وهل سأتخلى عنها بكل هذه البساطة؟! وماذا لو كانت سما تنتظر أن تخبرها بحبك لها؟.. فهي من الطبيعي ألَّا تخبرك بهذا أولًا.. فهي حاولت كثيرًا أن تسألك عن الشيء الذي تريد أن تخبرها به وأنت تتهرب منها.. هل ستكسر قلبها وتنساها وتتجاهلها؟! هل ستنسى كل شيء بهذه السهولة؟ وهل ستقدر على ذلك!!... الأمر شديد الصعوبة حقًّا.. فأنا مشتت بين حبي منذ أن كنت طفلًا.. وبين كلام أمي الذي لا أفهم معناه أبدًا.. مشتت ما بين قلبي الذي أراه في عينيها عندما أراها.. وبين تفكيري الكثير الذي لا أعرف له حلًّا.. وقلت لنفسي لا بد من أنسى سما.. فأنا لم أخبرها بحبي يومًا، ولم أعدها بشيء.. وهي لم تخبرني بحبها ولم تعدني بشيء أيضًا.. الحل الأمثل أن أنساها وأهب نفسي للنسيان.. وقلت لنفسي لن أذهب إلى منزل سما مرة

ثانية، ولن أذهب في الصباح الباكر لأراها، ولن أذهب لأذاكر لها ولن أفكر في أمرها أبدًا.. سأترك كل الأمور تأتي كما تأتي.. وبالفعل بدأت أتأهب لنسيان سما.. لكن كان الأمر شبه مستحيل.. فكل شيء أحاول أن أفعله يرفضه قلبي ويقول لي كيف تكون قاسيًا على طفلتك؟ كيف تنسى من خطفتني من أول نظرة؟.. وكل يوم يمضي وأنا أحاول نسيان سما وقلبي يسألني عليها وأنا لا أعرف ماذا أقول له.. انتظمت في دروسي وركزت في دراستي أكثر وحاولت التركيز، ومر أكثر من عشرين يومًا لم أرها، وفي يوم وأنا عائد من المدرسة شعرت أن سما في المكان.. دق قلبي دقة حب شديدة وبها لهفة غريبة.. وفجأة وجدت سما أمامي.. كانت في هيئة مكتب البريد هي وأمها.. وسما كانت تلتفت حولها كأنها تبحث عن أحد.. وأمها أمام مكتب في الداخل لا تظهر لكني أراها من بعيد.. وكان مكتب البريد أمام مدرستنا تمامًا.. وأنا لم أكن أعلم أن سما ستكون موجودة هنا؛ بل على العكس.. أنا لما أعرف أي أخبار عنها منذ أكثر من ثلاثة أسابيع.. كيف حدث ذلك وكيف

شعرت بوجودها في المكان قبل أن أراها.. هل هي قوة خفية بداخلي.. أم أنا شخص خارق؟! فالموضوع غريب جدًّا.. شعرت بوجودها قبل رؤيتها وقلت لنفسي لن أسلم عليهم وسأذهب في طريقي.. لو ذهبت لسما سأضيع كل ما فعلته الفترة الماضية في محاولة نسيانها.. ولكن.. على عكس إراداتي تمامًا.. وجدت نفسي خلف سما أنادي عليها.. لا أعلم كيف أخذني قلبي رغمًا عني إليها.. لا أعلم ما القوة الخفية التي جذبتني إليها.. وقلت لها "سما" فالتفت لي وقالت "محمد.. أنا كنت بادور عليك يا محمد مش هي دي مدرستك؟" كنت سأقع من طولي.. لقد دق قلبي عندما التفتت لي ورأيت عينها وهي تنطق اسمي، أعتقد أنه سحر.. سحر داخل عينها يسحرني.. ليس طبيعيًّا أبدًا ما يحدث.. وأكملت كلامها "لماذا لا تأتي إلينا منذ أكثر من أسبوعين؟" فقلت لها "يا سما عندي مذاكرة كثيرة فهي سنة مهمة تحدد مستقبلي وأنا أريد أن أدخل كلية الإعلام" فقالت لي "ذاكر يا محمد كويس بس تعالى اسأل عليَّ" قلت لها "سأسأل يا سما، حاضر" وقلت لها "هذه مدرستي" وأشرت لها

من بعيد "وهذا فصلي أيضًا الذي في الطابق الرابع من الناحية اليمنى" فتبسمت وقالت لي "مدرستك كبيرة وجميلة".

قلت لها "ستأتين إليها قريبًا وسأوصي كل المدرسين عليكِ.. فجميعهم يحبونني وأصدقائي" فقالت لي "إن شاء الله يا محمد بس علشان خاطري ابقى تعالى نذاكر شوية" قلت لها "سآتي يا سما عند نهاية الأسبوع إن شاء الله" وقلت لها "أين خالتي صحيح؟ وماذا تفعلين هنا لقد أنسيتني أن أسألك عنها وعن وجودك هنا" قالت لي "هي في الداخل.. لقد قلت لها أنني سأنتظر هنا يا أمي حتى تخرجين.. وكانت رافضة أن تتركني وحدي ولكن قلت لها لا تقلقي يا أمي قريبًا سأكون في هذه المدرسة وحدي دائمًا.. وانتظرت هنا لكي أعرف اسم مدرستك.. وقلت من الممكن أن أراك صدفة وأنت خارج أو داخل إلى المدرسة أو في المكان".. وتبسمت وفي عينها لمعة حزن وكأنها تقول لي "لا تتركني فوالله أنا أحبك من كل قلبي".. كنت سأبكي من حزن عينيها الذي ظهر على قلبي.. فأنا حقًّا اشتقت لها كثيرًا.. وفقط كنت أخفي وأُكابر وأقول أنا أستطيع النسيان.. لكن في الحقيقة.. أنا لا

أستطيع التخلي عن لمعة عينيها الصغيرة التي تخرج من قمر بلوتو، ولا ضحكتها الجميلة التي استطاعت أن تعيد فوضى قلبي من أول لقاء من بَعد بُعد دام أكثر من عشرين يومًا.. ولا أستطيع أن أفلت يدها أبدًا.. وخرجت خالتي وتفاجأت بوجودي وقالت "انتَ فين يا محمد؟ مش بتسأل على خالتك ليه؟" وهي تبتسم "وماذا تفعل هنا؟" قلت لها "أنا خارج من المدرسة وغصب عني هذه سنة دراسية مهمة، الوقت كله ضائع على المذاكرة والدروس.. سأسأل يا خالتي إن شاء الله" وكان عندي درس وقتها وكنت أود أن أذهب معهم وأكمل معهم بقية يومي.. لكن كنت سأترك درسي.. حقًّا فأنا مشتاق لمزاحي وضحكي مع سما وكلامي معها كثيرًا.. لكن الدرس مهم جدًّا.. وكنت غائبًا عنه حصة قبل ذلك بسبب مرضي.. فقلت سأذهب لدرسي وسأذهب إلى خالتي أم سما نهاية الأسبوع.. وقلت لخالتي "هل تريدين أي شيء مني؟.. لأن عندي درس بعد قليل" قالت خالتي "شكرًا، هيا اذهب إلى درسك حتى لا تتأخر" فسلمت عليهم وذهبت وأنا في غاية السعادة، أنا وقلبي؛ لأني قد رأيت سما.. وليس ذلك فقط.. ولأني شعرت بها حولي

وجواري قبل أن أعرف مكانها.. وكانت أيضًا تبحث عني بعينها، ووقفت في الخارج خصيصًا لكي تراني صدفة.. كنت في غاية السعادة وأنا أجري نحو الدرس وأقول يا ترى ما شعور سما الآن؟.. بعد أن رأتني.. هل تشعر مثلي بنفس هذه السعادة الفياضة؟.. اليوم أشرقت شمس سما ولمعت عينها أكثر وأكثر، وظهر الحب والشوق في عينها وفي ضحكتها؛ فهي كانت طيبة بقلب صافٍ جميل يظهر على وجهها.. فالشوق والحب والحزن ظهروا عليها عندما رأيتها وكأنها رواية رومانسية جميلة تسمى "ست الحزن والجمال" فسما كانت حزينة جدًّا بسبب غيابي عنها دون أن أخبرها أني سأغيب.. وكانت مشتاقة جدًّا لرؤيتي حتى ولو بمحض الصدفة.. وكانت جميلة لا تشبه أحدًا ولا أحد يشبهها.. استثنائية.. اختارها قلبي وأحبها من ضمن السبعة مليار في العالم.. ست الحزن والجمال أخبرتني بما فعلته اليوم بحبها وشوقها وجذبتني من قلبي وتمردت على كل قراراتي ولغت كل ثوراتي على نفسي في حبها.. فقط ومن نظرة حزن وعتاب بحب وشوق خرج من القلب وظهر على ملامح الوجه بكل صدق وحب...

رجعت عن كل قراراتي الكبيرة التي اتخذتها واقتنعت تمامًا أنني لن أستطيع أن أنسى سما مهما حدث.. والحل الوحيد هو أن أعرف الأسباب من أمي وأحاول أن أحل مشكلة هذه الأسباب معها.. وذهبت إلى درس اللغة العربية وأنا تائه تقريبًا وأفكر فيما حدث بيني وبين سما.. فأنا لم أرَها منذ أكثر من ثلاثة أسابيع.. وكان مدرس هذه المادة خفيف الظل ويضحك كثيرًا وسألني سؤالًا وأنا لم أنتبه لسؤاله فضحك عليَّ ساخرًا وقال "ومعانا زميلكم محمد شكله بيحب وسرحان في زميلته ومش مركز أصلًا في السؤال" فضحكت المجموعة كلها وشعرت بإحراج شديد.. وعلى الرغم من أن الموضوع كان على سبيل الضحك والمزحة من أستاذي وزملائي.. إلا أنه كان حقيقيًّا فعلًا.. فأنا لم أكن أحب فقط يا أستاذي العزيز؛ لقد كنت واقعًا وغريقًا في الحب معًا.. لكن أحببت أن أصحح لك الآن معلومة صغيرة.. هي لم تكن أبدًا زميلتي في مجموعة الدرس.. إنها كانت ابنة خالتي الجميلة.. وسبب توهاني الحقيقي أنها أخبرتني بحبها وشوقها وحزنها معًا بعينيها قبل

حصتك بدقائق معدودة.. فاعذرني وقل الحمد لله أنني لم أذهب إلى أي درس آخر بالخطأ وتذكرت أنه درس اللغة العربية الخاص بك..

وبعد أن انتهى الدرس وضحك الجميع عليَّ وأحرجت بهذه الطريقة.. لكن كنت أعلم أن كل واحد منا له دوره في الضحك عليه.. سواء نسي إجابة أو تأخر عن حصة أو غاب مرة أو أو أو.. فالمدرس كان يحب الضحك مع الجميع والجميع يحبه ويحب حصته وينتظر دوره في الضحك والمزاح، ولكن رغم كل هذا الضحك كان عنده ضمير ويحب عمله ويتمه على أكمل وجه.

وانتهى الدرس وذهبت إلى المنزل مع زملائي وكنا دائمًا نمشي سويًّا ونضحك ونمزح بعد وقبل وأثناء الدروس.. ولكن أنا لم أكن أحكي عن سما لأحد أبدًا منهم.. فكنت كتومًا.. لا أحب أن يعرف أحد عني شيئًا.. لكن كانوا يشعرون بحبي لها دائمًا.. ويخبروني بذلك وأنا أنكر.. وأقول لهم أنها ابنة خالتي مجرد ابنة خالتي ونحن قد تربينا سويًّا لا أكثر من ذلك.. ومع الوقت أصروا على ذلك.. حتى جاء يوم وقلت لنفسي

سأخبرهم أني أحب بنتًا من دفعتنا، وتوهمت لهم أي اسم لكي يزول الشك عن سما ولا يذكروا اسمها فيما بينهم.. ويقولون لي أني أحبها كما يفعلون.. واقتنعوا فعلًا بعد هذه الفكرة.. وأن سما مجرد ابنة خالتي وأننا إخوة ولا أحبها وهي مجرد صلة قرابة وأننا أصدقاء. والأمور أصبحت على هذه الحالة.. وذهبت إلى منزلي وقلت سأكمل مذاكرتي وأحاول أن أركز مثلما كنت أفعل.. وسأذهب لسما ساعة واحدة في الأسبوع.. وكأنها ترفيه عن نفسي.. وفي نفس الوقت أراها.. وسأكمل حبي لسما.. وسأحاول التحدث مع أمي لكن مع نهاية هذا العام.. فأنا سأكون قد كبرت وسأكون طالبًا جامعيًّا.. وهي أيضًا ستكون أكبر وستدخل الثانوية العامة وهي مرحلة مهمة لها.. تحتاجني بجانبها فيها كثيرًا.. وأنا لن أترك سما أبدًا في هذه المرحلة. وسأحاول أن أفهم من أمي كل الأمور ببساطة ودون أي مشاكل.. وعندما عُدت إلى المنزل وجلست لآكل.. قالت لي أمي "وشك منور وفرحان كدا ليه يا محمد يا عفريت؟" فأنا منذ كنت صغيرًا وأمي تقول لي كلمة "عفريت!" بسبب شقاوتي وحركاتي

الزائدة، وكنت دائمًا أجلب لها المشاكل مع زملائي في المدرسة حتى إنها في مرة وفي لحظة عصبية صرخت عليَّ وقالت "يعني لو ما جبتليش كل يوم مشكلة الناس هتشاور عليك وتقول اللي ما جابش لأمه مشكلة النهار دا أهو" ويومها ضحك أبي كثيرًا من عصبية أمي وحديثها بهذه الطريقة الساخرة وهي في غاية العصبية من تصرفاتي..

❋ ❋ ❋

الفصل الثامن

وأبي كان لا يحب المشاكل أبدًا ولا الصوت العالي ولا تصرفاتي الخاطئة المتكررة.. لكن كنت أنا الصغير وهو كان يحبني دونًا عن أي طفل في المنزل كله.. ولم يكن فقط لأني الصغير.. بل لأن أبي كان يقول أنني أُشبه جدي كثيرًا..

أما أمي فكانت دائمًا تفهمني وتشعر بي، وكانت ترى السعادة في عيني.. ورغم أن أمي كانت كثيرة الشكوى مني.. وكان لها كل الحق في ذلك.. فأنا حقًّا كنت شقيًّا أكثر مما ينبغي.. من كثرة شقاوتي في يوم من الأيام كان في أيام حصد محصول الأرز وكان سطح منزلنا مخزنًا لما يتبقى من قش الأرز وذلك لخلطه بعلف البهائم.. وكنت أسمع فيلم عنترة بن شداد.. أنا وأولاد عمتي، وبعد أن انتهى الفيلم أخذتني الحماسة لتمثيل الفيلم أنا وأولاد عمتي وصعدنا إلى سطح المنزل المملوء بالقش وأخذنا نلعب وأخذنا أعوادًا من حطب الذرة فكانت تشبه تمامًا الشعلة عندما

تجف وتتعرض للشمس فترة طويلة وأشعلت عود الحطب وكأني أحمل شعلة وأتخيل أنني بداخل الفيلم ومسكت عود الحطب وأنا داخل مخزن من مخازن القش لكي أختبئ فيها من أولاد عمتي.. وإذ فجأة تلمس نار شعلتي سقف المخزن وفي بضع ثوانٍ وجدت النار تشتعل في جميع أنحاء المخزن وأنا وسط النار.. انتابني الرعب وقلت حتمًا أنا سأحترق في وسط النيران.. واستنجدت بأولاد عمتي لكن لم يرد عليَّ أحد فقلت أنهم من المؤكد خافوا من النيران وهربوا، لكن ركضت تجاه الباب وسط النيران ولم يصِبني شيء أبدًا، وعندما خرجت من المخزن وجدت السطح كله يحترق.. ليس هذا فقط؛ فقريتنا كانت معظم بيوت أهلها في نفس عدد الطوابق وتلتصق ببعضها البعض، وإن كانت هناك مسافات لكن ليست بمسافات كبيرة، فوجدت القش يتطاير وهو يشتعل فوق البيوت ووجدت أسطح بيوت الجيران تحترق أيضًا، فنحن في أيام محصول وأهل القرية جميعًا يخزنون القش فوق الأسطح (وما زاد الطين بلة) كنت أنزل مسرعًا على السلم لكي أهرب.. وجدت برج الحمام يشتعل والحمام يطير من البرج ويتساقط وهو مشتعل على البيوت والنار

تزداد، فنزلت ولم أجد أولاد عمتي وأنا مرعوب وأريد أن أخبر أبي بما حدث وجريت على شرفتنا لأنها مكان جلسة أبي فوجدت عمي ميلاد بائع الجاز في القرية يقول لأبي "الحق يا حاج السطح بتاعك بيولع" انتشار النار والحريق بالكامل لم يتجاوز الثلاث دقائق؛ فالقش يشتعل وكأنه بنزين.. فجرى أبي وأخذ مطفأة الحريق.. وعندما صعد إلى السطح وجد القرية تشتعل من أعلى ليس منزلنا فقط، نزل أبي مسرعًا واتصل بسيارات المطافئ وسيارات الإسعاف وخرج أهل القرية في ذعر شديد والكل يتجه لماكينات الري ليخرجوا المياه من ترعة البلد وينقذوا ما يمكن إنقاذه.. حتى تأتي سيارات المطافئ، وأخلى أهل القرية البيوت وتجمع البنات والأطفال والنساء في الأراضي الزراعية بعيدًا عن النيران خوفًا من أن يصيبهم مكروه.. لكن كثيرًا من النساء رفضن التجمع وساعدن في إطفاء الحريق مع أزواجهم، "الباسكية" كانت تشتعل بالكامل في هذا اليوم بسببي، وجاءت الجرائد تكتب والتلفزيون المصري يصور ما حدث ولا أحد يعرف من هو السبب إلى الآن في هذه الحادثة.. فأولاد عمتي خافوا أن يعترفوا عليَّ لأبي وأنا خفت أن أعترف

عليهم وأقول.. وانطفأت يومها القرية وكان من رحمة الله بنا في هذا اليوم أنها أمطرت ولم يصب أحدًا أي مكروه أو يحترق، لكن أبدًا لن أنسى شكلي وأنا أتوسط النار.. ولم أنسَ منظر الحمام وهو يتطاير ثم يسقط على الأسطح وتشتعل البيوت.. لقد كنت طفلًا شقيًّا فوق الخيال ورغم كل ذلك فكانت أمي هي مصدر شعوري الحقيقي.. وكانت تعرفني دائمًا من نظرة عيني وعرفت أنني سعيد.. لكن للأسف لم أستطع أن أحكي لها سبب سعادتي.. لأنها بالتأكيد ستأخذنا إلى خناق ونقاش كبير.. أود أن أخوضه لكن في الوقت المناسب.. ودون أن تغضب أمي أبدًا.. فأنا أحبها كثيرًا، ويكفي أنني منذ أن كنت طفل وأنا أغضبها.. الآن قد كبرت ومن المفترض أن أصبح أكثر عقلانية وأريح أمي ولا أزعجها.. وقلت لأمي "نعم سعيد يا أمي.. لأنها آخر سنة دراسية لي وسأذهب للجامعة" وأكلت وقمت لمذاكرتي.. وبالفعل مع أنني كنت أتمنى أن أذهب إلى سما كل لحظة لكن قلت لن أذهب حتى أركز في دراستي وهي تشتاق إليَّ أيضًا حين تراني وكل يوم يمر.. وأنا أنتظر يوم الجمعة بفارغ الصبر لكي أرى سما.. وجاءت الجمعة المنتظرة

واستيقظت من النوم مبكرًا.. وارتديت أفضل ما عندي وذهبت لمنزل سما وطرقت على باب منزلها ففتحت خالتي وقالت لي "أهلًا أهلًا يا محمد" ودخلت وسلمت على أولاد خالتي وصعدت معهم لأعلى فوجدت سما تقابلني على منتصف السلم وتقول لي "أنا مستنياك من بدري" فضحكت لها وقلت لها "ما انا جاي بدري".. تصرفات سما وكلامها معي كان يدل أنها تحبني ولمعة عينيها الحزينتين دائمًا.. بالتحديد كانت تفرح وتلمع بشكل مختلف في وجودي.. عين سما البريئة كانت تفضحها أمام قلبي.. لكن إلى الآن.. لم أخبر سما بحبي لها.. ولم تخبرني.. ودخلت أنا وسما وجلسنا وسألتها عن أخبار المذاكرة وأخبار الدراسة ولم أطِل الحديث مع سما كثيرًا؛ لأن خالتي جاءت وقالت لي "سما ما زالت صغيرة أريدك أن تهتم بمذاكرتك هذا العام لأنه عام مهم لك كثيرًا، وأريدك أن تجتهد وهي ستذاكر بنفسها هذا العام إلى أن تهتم بدراستك وتنتقل إلى الجامعة، وإن احتاجت سما لشيء ستذهب لك المنزل وتذاكر لها.. لا تضيع وقتك كثيرًا واهتم بمذاكرتك كثيرًا لكي تدخل الكلية التي تريدها" قلت لها "بكل تأكيد يا خالتي سأجتاز هذه

السنة وأركز فيها كثيرًا إن شاء الله" ولم تعلق سما على كلام أمها لكن شعرت أنها تضايقت منه، وأنا أيضًا تضايقت كثيرًا فأنا هكذا لن أرى سما كل جمعة كما كنت أرتب، وقررت أن أقوم وأغادر ولم أجلس حتى سوى ربع ساعة مع سما.. فقالت لي سما "لم تذاكر لي أي شيء.. اجلس قليلًا وبعد ذلك غادر" لكن قلت لها "سأذهب يا سما وسآتي عندما يسمح الوقت لي، وأنا قد جئت كما وعدتك، وهذا العام مهم جدًّا بالنسبة لي ويجب عليكِ أن تضعي ذلك في اعتبارك وتساعديني على مذاكرتي لكي أدخل كلية الإعلام" قالت لي سما "إن شاء الله هتدخل الكلية يا محمد" وشعرت بالحزن وقلت "لا ما تزعليش بقى، هاشوفك الصبح وانتِ رايحة المدرسة" فقالت لي "منذ فترة كبيرة لم أرَك في الصباح.. فأنت مدرستك فترة مسائية وأنا فترة صباحية" قلت لها "ما انا باروح أجيب الفطار والعيش لماما الصبح، هاشوفك ما تقلقيش" قالت "انت بتضحك عليَّ يا محمد علشان تمشي" قلت لها "يا سما هو أنا عمري ضحكت عليكِ؟ لا تقلقي سأراكِ يا سما" وسلمت عليها وغادرت أنا.. بدأت أتأكد من شعور سما تجاهي.. كل ما ينقص شكي

أن أسمع منها هذا الكلام.. وقلت سأخبر سما عندما أنتهي من هذه السنة بحبي لها وسأخبر أمي أيضًا وأفهم منها..

وكنت قد قررت أن أراها يومًا واحدًا في الأسبوع، ولن أراها في الصباح كل يوم.. لكن أمها أربكت لي حساباتي، وأنا بعد كلامها قررت أنني لن أذهب إليهم إلا في الإجازة، أو عندما يسمح الأمر بعد فترة طويلة، وقلت سأرى سما في الصباح كل يوم ولا أذهب إليهم ولا ألفت نظر أمي للموضوع، وبالفعل كانت سما شمس كل صباح وبداية كل يوم وليس هذا فقط.. حبي لسما لم يكن متعلقًا برؤيتها أبدًا.. لأن رؤية سما كانت لا تكفيني.. "سما كانت بتكون واقفة تتكلم معايا ووحشاني".. سما دائمًا كانت لا تغيب عن بالي، كان ضروريًّا أن أراها كل صباح لترتاح روحي ويهدأ قلبي حتى يأتي اليوم الثاني.. فرؤيتها تمامًا كمسكن كتبه طبيب لمريض القلب بجرعة يومية.. لا يستطيع التخلي عنه وإلا زاد الألم.. كنت أحبها بكل تفاصيل حياتي، فكنت أترك لها مكانًا بجواري على سريري قبل أن أنام وأحدثها وتحدثني.. حتى دولابي الذي تشاجرت أمي معي بسببه كثيرًا لأني أعلق ملابسي خلف باب غرفتي وهناك مكان فارغ في داخل الدولاب وكانت تتعصب

وتستغرب أمري وتظن أنني مهمل وتذهب وتشتكي لأبي من هذا الأمر الغريب.. فلا أحد يعرف أنني أترك هذا المكان لفستانك الزهري المطرز بورود سماوية وفيونكة كبيرة من الوسط تشبه لون سحابك الصافي.. هذا الفستان الذي طالما حلمت به يوم خطبتنا.. لم تكوني مجرد رؤيتي الصباحية.. كنتِ كل حياتي البسيطة، حتى تسريحتي الصغيرة، كنت أراكِ دائمًا في مرآتها وأنا أسرح شعري.. كنت أكتب حروف اسمها في كل الأماكن حولي.. كانت موجودة بين ثنايا قلبي، حتى حديثي معها الدائم كنت أتخيله وأشعر بها ترد عليَّ وتضحك وتتبسم، وأرى عينيها ولمعة الحزن الصغيرة التي إلى الآن لم أعرف سببها.. طريقة كلامها وحركة شفتيها، كنت أحب أن أدير نقاشًا طويلًا بيننا نتحدث عن قصص الأنبياء والرسل.. عن الأخبار.. حتى التكنولوجيا.. والأغاني والأفلام الرومانسية.. قد دفعتني أن أحب كل شيء حولي وأربطه بها.. أحببت قريتنا ومدرستها.. حتى الدكاكين القريبة من منزلها، الشوارع التي تمشي بها باستمرار.. حتى قلمها الذي تكتب به.. كنت أغوص في تفاصيلها الصغيرة، كل شيء كنت أراه أمام عيني.. لقد جَمَّلت كل ما حولي بها.. ورسمتها في كل ملامح حياتي.. لقد جعلتني أتنفس بكل ما

تعنيه الكلمة من حياة.. زرعت في داخلي زهرة عباد.. جعلتها دوارة تلتف حول شمسها..

* * *

مر الوقت وزاد حبي لسما.. إلى أن سمعت أمي تتحدث مع أبي في يوم وتقول له "أنا خايفة يكون محمد بيحب سما، أنا حاسة بكدا جامد وانت عارف إحساسي" فاقتربت من باب غرفة أبي مع أنها ليست عادتي أبدًا ولكن أمي تتحدث عن موضوع يهمني كثيرًا ويشغل بالي وفيه إجابة سؤالي الذي طالما أردت أن أسأل أمي عنه.. لكن أجلت سؤالي إلى أن أدخل الجامعة.. وقال أبي لها "أعتقد أن محمد يحبها كأخته الصغيرة، وفي نهاية الأمر أنتِ قلقة بطريقة زائدة، فحتى لو كان يحبها هي مرحلة مراهقة وسيقابل زملاء وبناتًا كثيرة في الجامعة وخاصة إن دخل كلية الإعلام؛ فالكلية مليئة بالبنات الجميلات، وحتمًا سيُعجب بواحدة منهن.. إذا لم يُعجب في كل عام بواحدة" وضحك أبي مع أمي وأنا قلبي شعر وكان سكينًا دخلت به.. فأمي تنعي هم حبي لسما وأبي يفكر في أنني سأُعجب بزميلة لي في الجامعة وهي مجرد مرحلة مراهقة طبيعة يمر بها جميع الشباب.. ولا أبي ينظر ويحفز حبي لسما، ولا أمي القلقة من

ذلك.. ولا أحد ينظر لقلبي ويعلم كم أنا أحبها وأتعلق بها، وتمس روحي وتعيش في ثناياه.. وأكمل أبي حديثه مع أمي وقال لها "تعرفين كل المشكلة في عائلة سما؛ فهم أهل شر وخصوصًا من يوم حادث سرقة الآثار وتجارة السلاح الأخير، لا أحد يحبهم ولا حتى أسرة سما نفسها.. حتى في الجلسات العرفية التي يكونون طرفًا فيها.. أشعر بضيق في تلك الجلسات وأحاول على قدر الإمكان إنهاء الجلسة بسرعة" وقالت أمي له "هذا هو كل ما يقلقني.. فأنا أحب محمد كثيرًا فهو صغيري ولا أريد أن أكسر قلبه، وأحب سما كثيرًا أيضًا فقد تربت معنا هي وأمها وأخواتها وأخاف أن تتعلق به أيضًا ويتعلقا ببعضهما.. وخاصة كما قلت إن محمد في فترة مراهقة وهي أيضًا في نفس الفترة.. أتمنى أن يكونا أصدقاء وإخوة كما تقول.. لكن أنا شعوري لا يخونني أبدًا"

فصعدت إلى غرفتي مسرعًا وأنا قلبي يدق بضربات غير منتظمة، وأنا أخيرًا عرفت سبب تعكير صفو الأسرتين في حبي لسما.. وعرفت رفض أمي وأبي لفكرة حبي لسما.. وجلست أفكر لماذا يفكرون بهذه الطريقة؟ فهي بنت جميلة ومؤدبة هي وأسرتها، وليس لها ذنب فيما فعله الآخرون.. كيف يفكرون في الأمر؟! أنا أيضًا أكره عائلة سما ولا

أحبهم، لكن هي ليس لها أي ذنب في ذلك، وقلت لنفسي.. فهم أيضًا يحبون سما، لكن لماذا يربطون سما وحبهم لها بعائلتها.. لماذا لا يفعلون مثلي.. ازداد الأمر تعقيدًا بالنسبة لي لأني عرفت السبب والسبب مقنع جدًّا لأبي وأمي وخاصة أمي.. فأبي ينظر للموضوع وكأنه فترة مؤقتة ستمر حتمًا وتنتهي.. لكن أمي لم تكن تنظر للموضوع بهذه النظرة.. أمي كانت تعرفني جيدًا وكأن أمي تخاف من إخلاصي.. تخاف أن يتحول إلى جدار سميك يحيط بحبي لسما.. ولا أنساها.. وهذه هي الحقيقة يا أمي.. شعورك بصغيرك صحيح تمامًا وفي محله.

❋ ❋ ❋

الفصل التاسع

المشكلة الحقيقة أنني عرفت هذا السبب قبل امتحانات الثانوية بشهر تقريبًا.. وهذا الوقت كان قاتلًا بالنسبة لي؛ لأنني كنت مضغوطًا بطريقة كبيرة.. مذاكرة ومراجعة طوال الوقت.. وكانت سنة طويلة.. كنت قد مللت من كثرة المذاكرة وكثرة الدروس والمراجعات والامتحانات.. كنت لا أفكر في هذه الفترة إلا أن تنتهي بأي شكل من الأشكال.. وكنت أتمنى أن تأتي الامتحانات لكي أنتهي من كل هذا الضغط الكبير.. وهنا بعد ما عرفت السبب وجدت نفسي مشتتًا ما بين مذاكرتي وامتحاناتي وتفكيري في سما من جديد.. وخاصة أنني في هذه الفترة كنت لا أفكر بها كثيرًا، وكان كل تركيزي في أن تنهي هذه المرحلة المراهقة وأدخل كلية الإعلام.. وفات أسبوع وأنا حزين لا أستطيع التركيز بكل طاقتي في المذاكرة، ولكن قلت لنفسي سيضيع كل شيء هكذا.. اجتهد يا محمد كما كنت وركز في دراستك حتى تنتهي هذه

الفترة وبعد ذلك فكر فيما تريد.. وماذا سوف تفعل مع سما؟ لكن الآن كل ما هو عليك أن تنتهي من هذه الفترة ولا تضيع مجهود كل هذا العام بسبب التفكير والتردد والأسئلة الحائرة.. كنت في هذا الوقت أريد أن أستعين بأختي لكن للأسف هي كانت في كلية طب الأسنان ودائمًا مشغولة في مذاكرتها وامتحاناتها الكثيرة.. وصديقي "مشمش" كان دائمًا بجانبي ويحاول بكل جهده أن يجعلني سعيدًا، وكان دائمًا آخر فترة يأتي إليَّ لكي يساعدني إن أردت شيئًا في امتحاناتي أو تصوير ورق من المكتبة.. فكان يذهب بدلًا مني حتى لا أضيع وقتي.. وقد حكيت له ما حدث وقال لي "لا تفكر في أي شيء إلا بعد أن تنتهي هذه الفترة.. وذاكر جيدًا.. فأنت لم تذاكر منذ أكثر من أسبوع بنفس المستوى.. وقال لي "كل شيء سيكون على ما يرام.. إلا الوقت.. فالوقت يقترب يا صديقي عليك ولا بد أن ننتهي من هذه الفترة لكي تدخل كلية الإعلام.. وأراك مخرجًا كبيرًا أو صحفيًّا مناضلًا أو مذيعًا مشهورًا.. يأخذ بحق الضعيف وينصره.." وجلس "مشمش" يشجعني، كان "مشمش" صديقي يحبني كثيرًا.. كنت أرى الخير في عينه لي قبل نفسه..

يستطيع أن يتخلى عن بعض حظوظ نفسه من أجلي إذا احتجت إليها.. لا أخاف منه ولا أرتابه أبدًا أبدًا.. لم أكن أتعامل معه بحذر.. كان "مشمش" حقًّا صديقي..

وبدأت أستعيد قواي وأراجع دروسي وأستعد جيدًا للامتحانات.. ومر الوقت سريعًا وجاءت ليلة أول امتحان.. وكان للغة العربية.. وكنا بعد المغرب.. وإذ بباب منزلنا يدق.. لا أعرف لماذا شعرت أنها سما.. وكنت في آخر ثلاثة شهور لا أفتح الباب تقريبًا إلا لأذهب لدروسي وأذاكر.. وقلت لمشمش أعتقد أنها سما.. سأفتح الباب وقمت بفتح الباب سريعًا.. ووجدتها سما.. قلت لها "سما.. أهلًا أهلًا" فكنت لم أرها منذ فترة طويلة.. وهي كانت تعلم أنني مشغول جدًّا في المذاكرة.. وقالت لي "أنا جيت علشان أقول لك حل بكرة كويس.. وركز واوعى تنسى أسئلة.. وسطر كويس واكتب بخط حلو يا محمد.. بلاش الخط اللي بتذاكر لي بيه دا.." فتبسمت لسما فهي تقريبًا تقول لي نفس نصائحي التي كنت أنصحها بها قبل امتحاناتها.. وضحكت وقالت لي "بقلدك

حلو أهو.. شد حيلك يا محمد وحل كويس بقى.. وأنا هامشي علشان ما اتأخرش على ماما.. وسلم لي على خالتي كتير وخالي.."وقلت لها "سلام يا سما.. كنت أود أن أوصلك.. لكن الوقت قصير جدًّا.." قالت "يا محمد اطلع ذاكر.. الامتحان بكرة أنا مش هاتوه.. وابقى طمني عملت إيه.." فضحكت وقلت لها "سلام" وأغلقت الباب وصعدت لأكمل مذاكرتي مع صديق "مشمش".. فقال لي "كانت سما..؟" قالي لي "لا أعرف كيف تعرف أنها هي قبل أن تفتح أو تراها.." وضحك.. وقلت له "جاية تقول لي سطر واكتب بخط حلو مش اللي بتذاكر لي بيه.." فضحك أيضًا.. وضحكنا.. وقلنا "هيا لكي نكمل زيارة سما لي.. قد كان لها تحفيز كبير بداخلي.. فأنا كنت أشتاق لرؤيتها وضحكتها وكلامها الذي يشعر قلبي بدفء غريب.. يجعلني أحن لها طوال الوقت.. زيارة سما أعطتني قوة أكثر مع قوة صديقي "مشمش" وأمي الجميلة وعائلتي التي كانت تتمنى جميعها أن أدخل كلية الإعلام وأحقق حلمي.. وكانت أمي تدخل كل ربع ساعة تطمئن علينا وتحضر العصير

وتدعي لي.. كنت أملُّ من كثرة العصير.. لكن دعوة أمي دائمًا كنت أحبها.. لكن صديقي "مشمش" كان يحب العصير كثيرًا، حتى إنه كان يشرب من كوز العصير نفسه.. ويقول لي "يا عم مش مهم كُبَّايَات".. فكنا نضحك كثيرًا.. لقد وصلت صداقتنا إلى هذا الحد.. فالشرب من الكوز مباشرة لا يعني أبدًا أنه مجرد صديق أو ضيف في المنزل.. وفي مرة نست أمي شيئًا في غرفتنا.. فدخلت مرة ثانية.. ومشمش يشرب من الكوز.. فأُحرج كثيرًا من أمي.. وأنا يومها كنت أغرق من الضحك...

وذهبت إلى الامتحان في الصباح الباكر.. والجميع يدعو لي أن يوفقني الله.. ومرت الامتحانات بمرها وحلوها وانتهت.. وجاء يوم النتيجة الذي كنت أعرف ما سيحدث به.. وأعرف أنني لن أتجاوز ال 90٪ بسبب مادة اللغة الإنجليزية والرياضيات.. وبالفعل كان مجموعي 83٪ وعمَّ الحزن أكثر.. لأنني لن أدخل كلية الإعلام، وضاع حلم حياتي.. وعمَّ الحزن على جميع أهلي.. لكن دائمًا كان أبي وأمي المغيثين لي مهما حدث.. وفي ثاني يوم بعد النتيجة.. جاء أبي يقول لي "مبروك..

ستدخل كلية الإعلام.." وهو سعيد ومبتسم.. كنت أظن أن أبي يستهزئ بي.. لكن لمعة عين أبي وكأنه حدث شيء فعلًا.. قال لي "ستدخل الإعلام الخاصة.. لقد دفعت لك كل المصروفات اللازمة.. وهذا أفضل لك من الجامعات الحكومية.. فهذه الكلية الخاصة متوفر بها جميع الاستديوهات المؤهلة لك.. ونخبة جيدة من الأساتذة الجامعين.." وكأن أبي يعطيني جرعة جديدة لتشجيعي على ما هو قادم.. أنا لم أتمالك نفسي من الفرح والسعادة.. فقفزت في حضن أبي من السعادة.. وسجدت لله الذي طالما لم ينسني أبدًا واستجاب لدعائي الكثير.. وفرج عني همي وحزني ولم يتركني أبدًا.. كان دائمًا أقرب إليَّ من حبل الوريد...

مستقبل حياتي.. الإسكندرية.. عروس البحر الأبيض المتوسط.. جميلة الجميلات.. مدينة السحر والجمال.. شواطئها الزرقاء وزحمة شوارعها ومبانيها العتيقة في شتاء ديسمبر.. وشاطئها الجميل.. وصوت الترام الذي يسير بين الناس في المدينة.. ولهجة أهلها.. الإسكندرية

كانت بالنسبة لي مستقبلي كله.. ودائمًا كنت أحلم أن أعيش بها.. وصل القطار إلى محطة "سيدي جابر" بعد سفر دام أكثر من سبع ساعات.. نزلت واتجهت إلى شقتنا.. فكان أبي قد أخذ لنا شقة في حي محطة الرمل.. كنا نذهب إليها كل عام.. أنا وأسرتي وأولاد عمي في فصل الصيف.. وقد قررت أن أسكن فيها.. ووصلت واتصلت على أبي وطمأنته عليَّ هو وأمي القلقة دائمًا.. والتي كانت تود أن تأتي معي الكلية أول يوم.. لولا أبي وإخوتي قد منعوها.. جلست ونظفت غرفتي وأخرجت ملابسي ووضعتها في دولابي.. وكعادتي تركت مكانًا لفستان سما بجوار ملابسي.. وانتهيت ونمت إلى أن جاء الليل فنزلت إلى محطة الرمل التي أعشق شوارعها منذ أن كنت طفلًا آتي مع أبي في فصل الصيف.. عندما كنت في فصل صيف إجازة الصف الأول الثانوي.. كنت قد كتبت على صخرة من كورنيش محطة الرمل اسمي واسم سما.. فذهبت لأراها وأكتب بجواره شيئًا جديدًا.. وجدت الاسمين كما هما.. لكن بهتا جدًّا وأوشكا على الاختفاء.. فكتبتهما من جديد.. وكتبت

تاريخًا جديدًا.. وكان 18 / 10.. وكتبت "أول يوم لي في مدينتي الجديدة يا سما وأنا أنتظرك بفارغ الصبر لتنيري المدينة في كلية الصيدلة.. أحبك كثيرًا.." لم أنسَ التاريخ أبدًا لأنه كان يوافق عيد ميلاد أمي وأيضًا يوافق أول يوم دراستي في الجامعة.. وأول صخرة تعرف بحبي لسما في المدينة قبل أي شخص يعيش فيها.. وأرسلت رسالة لسما أنني قد وصلت منذ بضع ساعات وكل أموري على ما يرام...

❋ ❋ ❋

الفصل العاشر

وردَّت سما على الرسالة وقالت لي في الحال وكأنها كانت تنتظر الرسالة "حمد الله على سلامتك يا محمد.. المفروض كنت تبعت أول ما توصل.. استنيتك تطمني كتير وكنت قلقانة عليك" قلت لها "ما تقلقيش يا سما أنا بس رتبت أموري ودلوقت باتمشى في الشوارع وراجع لشقتنا.."

وطمأنت سما وذهبت للنوم لأني سأستيقظ مبكرًا.. وجاء أول يوم لي في الجامعة وذهبت إلى الكلية ودخلت.. ثم سألت أين يُعلق جدول المحاضرات.. فوجدت أن الجدول من الثامنة صباحًا وحتى السادسة مساءً.. كل يوم ما عدا يوم الجمعة.. فصدمت.. فأنا كنت أعتقد أنني سأدرس ثلاثة أيام في الأسبوع.. ثم ذهبت إلى المدرج الخاص بالطلبة الجدد.. وجلست في أول صف بجوار زملائي.. وتعرفت على أول زميل لي في الكلية.. فكان اسمه عبد الله.. وبدأ الطلبة يتوافدون إلى

المدرج.. ووجدت الدفعة لا تتعدى الـ ٢٠٠ طالبًا.. والأولاد بالتحديد لم يتعدوا الـ ٥٠ طالبًا.. وانتهى اليوم الأول لي في الجامعة.. وأنا خارج من باب الجامعة.. سُرقت محفظتي في أول يوم لي.. وكان يوم سيئًا جدًّا.. لا أعرف أحدًا ولا أحد يعرفني.. وما زلنا في أول يوم وكان معي مصاريف الشهر كاملة.. تشاءمت من اليوم.. وسألت الجميع عن محفظتي.. لكن لم يجدها أحد.. وسألت وذهبت إلى الأمن وأخبرته إن وجدها أحد فهي محفظتي.. وأخبرته بمواصفاتها وأعطيته رقمي.. وذهبت إلى المدرج مرة ثانية لكي أسأل مرة أخرى.. ولكن دون جدوى.. فوجدت زميلي عبد الله الذي تعرفت عليه في أول اليوم.. قال "ما بك أراك حائرًا هكذا؟!" فقلت "لا شيء.. لكن فقدت محفظتي ولا أعرف أين هي وسألت كثيرًا عنها وأخبرت مكتب الأمن لكنني لم أجدها.. ولا أعرف كيف أتصرف.." قال لي "لا تقلق سأعطيك المال وأحضره لي، أي عندما يتوفر معك.." فقلت له "شكرًا كثيرًا.. وأنا متردد.. فأخذت المال منه.. لأنه ليس هناك حل آخر.. وقلت له "انتظر سأتصل بأبي وأخبره عما حدث".. وأخبرت أبي بما حدث وقال لي "لا

تقلق سأرسل لك في الصباح ما تريد عبر البريد واذهب وخذ المال.. لكن عليك أن تحافظ جيدًا على محفظتك بعد ذلك.. وخذ المال من صديقك إلى الصباح واشكره كثيرًا".. وذهبت أنا وعبد الله وأكلنا سويًّا وحكيت له عن حياتي وعن الصعيد، وحكى لي عنه وعن الإسكندرية واتفق معي أن نتجول في المدينة بكل شوارعها في عطلتنا ووقت الفراغ.. ذهبت إلى شقتي.. وفي الصباح ذهبت إلى البريد وسحبت المال الذي أرسله لي أبي وذهبت إلى عبد الله وأعطيته المال.. لكن رفض كثيرًا أن يأخذ المال.. ولكن أنا كنت مُصرًّا على ذلك.. ومن يومها أصبحنا أصدقاء.. تجمعنا علاقة صداقة طيبة.. نذاكر سويًّا.. ونجلس سويًّا في المحاضرات.. حتى بعد انتهاء المحاضرات نخرج سويًّا نتمشى في أرجاء المدينة.. وفي الأسبوع الثاني.. قاموا بتقسيم الدفعة إلى مجموعات.. لأن كليتنا كانت تعتمد أكثر على الجانب العملي.. وكانت كل مجموعة تتكون من ولدين وأربعة بنات.. بسبب قلة عدد الأولاد.. وكانت المشكلة بالنسبة لي أن معظم البنات في دفعتي غير محجبات.. والمعلمون يتحدثون معنا عن نظام العملي وكيفية القيام به.. عرفت أن الاختلاط

سيكون كثيرًا جدًّا إلى أن أنتهي من دراستي في الكلية.. ولكن لنفسي هذه طبيعة كليتي ولا يوجد أزمة في ذلك.. وسيمر الوقت حتمًا وسأتعود.. ومرت معظم الأيام في ذهابي إلى الكلية في الصباح وفي آخر النهار أعود لأذاكر.. وأكلم أبي وأمي وأُطمئنهم عليَّ وعلى أخباري.. وأكلم أختي.. فهي كانت تدرس في جامعة القاهرة.. أطمئن عليها.. وأكلم سما أسألها عن دروسها.. وتسألني عن كليتي.. ولكن لم أكن أخبرها بأشياء مثيرة عن الكلية؛ لأني كنت أعلم أنها ستتضايق من تعاملي مع البنات.. وأنا لا أريد أن يتعكر صفو شيء، وخصوصًا أنني أنتوي إخبارها بأني أحبها هذه الفترة.. عندما أعود إلى القرية.. وجاء يوم عطلتي من الجامعة فهو يوم مميز بالنسبة لي، فكنت أنهي كل مذاكرتي فيه.. ثم أتجه إلى الكورنيش لأكتب على الصخور.. فكنت أحب أن أفعل ذلك كثيرًا.. فأنا كنت أكتب شعرًا وحبًّا وكلامًا بداخلي وكلامًا من كلام سما لي.. كنت أحب سماعه منها.. مع أنه كلام عادي لا هو بعشق ولا حتى شعر.. وقلت في نفسي سأكتب دائمًا حتى نتزوج أنا وسما، وعندما تغضب مني أو يحدث بيننا مشكلة كبيرة أو أقوم

بمضايقتها.. آخذها بسيارتي وننزل إلى الكورنيش.. وأجعلها تقرأ.. كنت أحلم بذلك كثيرًا.. كنت أحلم بأن أجعل كورنيش الإسكندرية حلًّا لأي مشكلة تحدث بيننا فيما بعد.. كنت أبني جدار مودة وصلح من الكلمات.. يسيج كورنيش الإسكندرية.. ليكون قلعة وحصنًا منيعًا يحافظ على حبنا وحياتنا قبل أن تبدأ.. حصنًا فيه حل لأي مشكلة بيننا.. فلك أن تتخيل أن تحدث مشكلة.. وآذها ونذهب إلى الكورنيش وأقول لها سننزل هنا وستقرأ شيئًا كتبته لها منذ خمس سنوات هنا.. أو منذ أن وصلت أول يوم في الجامعة.. أو يوم عيد ميلادها.. أو يوم أن أخبرتني أنك تحبني.. تقرأ جملة قالتها لي وهي ما زالت طفلة.. كنت أنوي أن يكون حبي لسما كبيرًا.. يتعدى كل الناس.. وتشهد عليه طيور النورس على بحر الإسكندرية.. والرمل والصخور والأمواج.. كنت أبني بيتنا قبل أن تأتي إليه.. كنت أضعها أمام عيني وداخل قلبي.. قبل أن يعرف أي حد شيئًا عنها.. وكنت دائمًا أكتب وأكتب في كل جمعة تقريبًا.. حتى فات شهر وعشرة أيام.. وأنا لم أنزل إلى بلدتنا منذ أن بدأت الدراسة.. وكنت قد اشتقت لأسرتي كثيرًا وأصدقائي.. وبالتحديد صديقي

"مشمش".. واشتقت لسما كثيرًا واشتقت لنطق اسمي منها.. ولمعة عينيها وطريقة كلامها وضحكتها.. فإذا بإدارة اتحاد الطلاب تعلن بإجازة رسمية، أسبوع قبل بدء امتحانات نصف الفصل الدراسي الأول.. ففرحت كثيرًا بهذا الخبر.. وقررت أنني سأرجع لأمي وأبي وإلى القرية أخيرًا.. وذهبت إلى شقتي وأحضرت حقيبتي وحجزت في أقرب قطار.. ولكن قبل أن أسافر.. كنت قد رأيت سلسلة في رقبة مذيعة في إحدى القنوات.. وأعجبتني كثيرًا.. كانت سلسلة عتيقة.. من الفضة الخالصة.. وبداخلها بندور يدور ويحسب الوقت.. وبحثت في المدينة كلها لكي أحضر السلسلة وأخيرًا وجدتها واشتريتها.. وسافرت إلى البلدة ولم أخبر سما أنني عائد ولا حتى أمي ولا أي أحد لكي تكون مفاجأة لهم.. ووصل القطار إلى محطة بلدتنا ونزلت البلدة مسرعًا إلى منزلنا.. ووجدت باب المنزل الكبير مفتوحًا كعادته فدخلت مسرعًا.. وجدت أمي في المطبخ فناديت عليها.. فحضنتني أمي وفرحت كثيرًا.. وقالت لي "كان لا بد أن تخبرني أنك قادم لأطبخ لك جميع أنواع الأطعمة التي تحبها.. وما لك خسيت كدا ليه؟".. وتبوس خدي

وتحتضني.. أمي كانت جميلة.. أشعر بحنانها دائمًا وطيبة القلب.. طوال الوقت تخاف علينا وقلقة.. وسألتها "أين أبي وإخوتي؟ لقد اشتقت إليهم كثيرًا.." قالت "أبوك في غرفته وأخوك في الجامعة وسيأتي آخر اليوم.. وأختك في جامعتها.. اصعد لأبيك فهو في الأعلى" فسمع أبي صوتي.. فقام ونزل من السلم.. وقال "أهلًا أهلًا بالصحفي المشاكس بتاعنا.. وحشت أبوك يا حبيب أبوك.." فقابلت أبي بالاحتضان وقبلت على يديه.. فأنا حقًّا اشتقت إليه كثيرًا.. كان كلام أبي دائمًا محفزًا لي.. كلامه كان من نوع خاص.. وقال لي "حمدًا لله على سلامتك.. كنت أعرف أنك ستأتي فجأة.. تعالَ نجلس في الشرفة.. واحكِ لي عن كليتك.." فذهبت مع أبي إلى الشرفة.. ونادى على أمي وقال لها "اعملي لنا كوبايتين شاي أشربهم أنا والصحفي هنا في البلكونة.." فضحكت أمي وقالت له "حاضر بس هاجيب الغدا الأول.." وجلسنا نتسامر أنا وأبي عن الكلية والمدينة والإسكندرية وعن زملائي وصديقي عبد الله ويوم أن فقدت محفظتي وجلسنا وأكلنا.. وقلت لأبي سأذهب لأسلم على صديقي "مشمش" حتى يعود أخي من الكلية.. لأسلم عليه

وأنطلق إلى منزل سما بحجة صديقي "مشمش" وأخذت الساعة وذهبت لمنزل سما فأنا قررت أن أخبرها هذه المرة بحبي.. وأتحدث مع أمي في كل شيء.. وذهبت إلى منزل سما وناديت.. ففتح أخوها الصغير الباب.. فدخلت وسلمت على خالتي وسألت عن سما.. قالت لي "هي في الدرس وزمانها جاية" فجلست مع أخواتها الصغار حتى تأتي.. فدقَّ جرس منزلها وهي تنادي فقمت لفتح الباب فوجدتني تفاجأت سما عندما فتحت الباب لها.. وقالت "محمد.. يا نهار أبيض يا محمد، ما قلتليش إنك جاي.. بس والله أنا قلبي كان حاسس إنك جاي.. وحشتنا كلنا يا محمد" وضحكت أيضًا وقلت لها "أنا قلت أعمل لك مفاجأة.." قالت لي "أحلى مفاجأة والله.." ودخلت من الباب.. كانت سما عائدة من الدروس مرهقة.. فأنا أتذكر تلك الأيام عندما كنت في الثانوية.. وكثرة الدروس والمذاكرة.. وصعدنا أنا وسما على السلم وقالت لي "متى أتيت؟" قلت لها "منذ قليل.. سلمت عليهم في المنزل وأتيت إليكم لأسلم عليكم" وقلت لها "صحيح يا سما من شوية قُلتيلي إني وحشتكم.. وحشتكم كلكم يعني ولا وحشتك ولا إيه بالظبط؟

فهميني.. " فتبسمت سما واحمر وجهها وأُحرج خدها الوردي الجميل.. كنت أتعمد أن أحرجها.. كنت أحب ارتباكها جدًّا ورغم ارتباكها هذا.. إلا أن احمرار خديها وضحكتها بخجل ولمعة عينيها يربكاني أكثر منها بكثير.. وكررت كلامي عليها "يا بت قولي يلا وحشتكم ولا وحشتك انتِ؟" فقالت لي "محمد اسكت وحشتنا كلنا.. وبعدين احكي لي يلا عن الكلية.. لأن كل أصدقائي في المدرسة يتحدثون عنها ويقولون إنها مليئة بالبنات الغير محجبات.. وأنت لا تحكي لي أي شيء عنها.. وطالما سألتك تقول لي عندما أعود سأحكي لك عن الكلية.. هيا احكِ لي، هل تتحدث مع هؤلاء البنات وتجلس معهن؟" فقلت لها "نعم يا سما.. أتحدث معهن في إطار..." ولم أكمل كلمتي وتعصبت سما وقالت لي "في إطار إيه؟! أيوة كمل يا اخويا كمل.. وتتكلم معاهم ليه أصلًا؟" قلت لها "اهدي يا جزمة فيه إيه؟" وكنت سعيدًا جدًّا وفي غاية السعادة.. الغيرة خرجت من قلب سما أخيرًا إلى لسانها ووجها.. وقلت لها "هتسمعيني يا سما بقى ولا ما اكملش..؟" قالت لي "هاسمعك اتفضل، كمل، اتفضل، ما اسمعكش ازاي، اتفضل.." فبدأت أحكي

وأنا لا أتمالك نفسي من الضحك فكانت جميلة وهي غيورة وعصبية.. وقلت لها "نحن في الكلية عبارة عن مجموعات من البنات والأولاد.. البنات ثلاثة أرباع الدفعة ونحن تقريبًا الربع.. يقسموننا إلى مجموعات كل مجموعة بها أربع بنات وولدان.." قالت "أربعة.. آها، ما هو يا دوب على قد الشرع يا محمد، الشرع محلل أربعة برضه.." فضحكت بصوت عالٍ حتى سمعتها خالتي في الأسفل وقالت لي "وطوا صوتكم يا عيال.." قلت لها "أمك هتطلع تكرشني بتقولي إيه بس يا سما.. هذه مجموعة للقيام بأعمال العملي فقط لا أكثر ولا أقل.." قالت لي "ومجموعتك دي فيها بنات حلوة..؟" قلت لها "كثيرًا يا سما" فقالت لي "نعم يا اخويا؟ انت بتقعد تبص بقى.." قلت لها بضحك "يا سما باهزر والله ما بابصش على حد" فقالت "بص يا محمد.. أنا مخاصماك وما تكلمنيش تاني خالص وما تجيش عندنا وأنا هاقول لخالتي إنك بتبص على البنات في الكلية.." قلت لها "يا سما لا، يا سما أنا أمزح معكِ.. لا تغضبي هكذا.. ولماذا يا سما كل هذه الغيرة..؟" فردت بسرعة وقالت "غيرة..؟! ليست غيرة؛ أنا فقط خائفة عليك من بنات

المدينة.." فقلت "لا لا تخافي يا سما عليَّ، فأنا أعرف كيف أتعامل مع الجميع" وقلت لها "سما.. لقد أحضرت لك هدية معي من الإسكندرية.." فلمعت عين سما وقالت "بجد يا محمد؟" ونسيت البنات والغيرة.. فقلت لها "نعم.. وأخرجت لها السلسلة من جيبي وقلت لها انظري.." فقالت سما "الله يا محمد الله.. دا أنا كان نفسي في حاجة شبهها كدا.." قلت لها "هذه تذكار يا سما.. ويقولون دائمًا (التذكار شكل من أشكال اللقاء) اجعليها معكِ دائمًا عندما تشتاقون إليَّ جميعًا.. هاااا جميعًا.. أخرجيها وتذكروني.." فرحت سما وقالت "عندما أشتاق إليك ها.. سأخرجها سأخرجها" وضحكنا وندهت سما على أخواتها وأمها "انظروا محمد أحضر لي سلسلة من المدينة" وأعجبتهم السلسة كثيرًا، وقلت لها "لقد ادخرت من مصروفي خصيصًا لكي أستطيع أن أشتريها لكِ يا سما..."

❋ ❋ ❋

الفصل الحادي عشر

وأكملت كلامي... "سما أريد أن أخبرك بشيء.. كنت أريد أن أخبرك به منذ أن كنا أطفالًا.. وانتظرت أكثر من سبع سنوات لكي أخبرك.." وبدأت أتوتر مثل أول مرة تمامًا عندما كنت صبيًّا وهي طفلة.. لكن قلت لنفسي سأخبرها، لا بد أن أخبرها... وهي بدأت يحمر وجهها وتلمع عيناها وتشعر بأني سأخبرها بحبي.. وقلت لها "يا سما أنا أتذكر ذاك اليوم الذي دخلتِ فيه شرفة منزلنا وجلسنا ولعبنا سويًّا.. يومها نطقتِ اسمي (مد).. لم تكوني تعرفين كيف تنطقين الكلام.. كنتِ طفلة صغيرة تتلعثمين في الحروف والكلام.. وكنت لكِ (المد) فعلًا كما نطقتِها أول مرة.. وإلى الآن.. لم نترك بعضنا البعض.. فقالت "حقيقي يا محمد.. فأنت وقفت بجانبي كثيرًا.. وأنت ابن خالتي وأفضل شخص لديَّ على الإطلاق.. وأنا أخاف عليك كثيرًا وأدعو دائمًا لك وأنا أصلي.. ودائمًا أريد أن أقدم لك المساعدة.. ولكن لا أعرف

كيف أساعدك.. أنت دائمًا الذي تساعدني وتكون بجا..." فلم تكمل حديثها وقلت لها "سما أنا بحبك"... لا أعرف كيف نطقتها وكيف خرجت في وسط الكلام بعد أكثر من سبع سنوات وأنا أحاول أن أنطقها ولا أعرف.. أخيرًا انزاح الحجر من على قلبي.. وأخبرت سما بحبي لها... سما وهي تتكلم معي بطبيعتها وبقلبها كانت ملفتة من شدة بساطتها.. كانت ملفتة.. فاحمر وجه سما كثيرًا وصعدت درجة إلى أعلى السلم.. وأخذت نفسًا عميقًا ولمعت عيناها وتبسمت لي ونظرت لأسفل.. فقلت لها "سما هل تضايقتِ؟ لو تضايقتي كأنني لم أقل شيئًا يا سما.." فرفعت رأسها وقالت لي "هو انت قلت إيه يا محمد أنا ما سمعتش كويس.." وهي تضحك وخدها الوردي يزدهر وكأن الفل يطرح على خديها... فدق قلبي وكأنها قالت لي وأنا أيضًا أحبك.. فضحكت سما لي وغيرتها منذ قليل من بنات الجامعة دليل كامل على حبها لي.. وكما يقولون دائمًا.. الجواب باين من عنوانه.. ومظروف جواب سما مكتوب عليه من الخارج.. وأنا أيضًا أحبك.. أما تفاصيله من الداخل لم أقرأها بعد.. فهل تنطقها سما أيضًا وتخبرني بحبها وتحكي

لي تفاصيل جوابها؟ أم إنها لن تفتح مظروف قلبها لحبيبها المنتظر منذ سبع سنوات هذه اللحظات؟

أنا في ذلك الوقت أحرجت كثيرًا.. أنا قد اعترفت بحبي لسما.. ولكن أنا كنت قد كتبت لها ورقة صغيرة ووضعتها في مكان سري داخل السلسلة.. ظنًّا مني بأني لن أستطيع إخبارها بحبي وسأتردد مثل كل مرة.. فكتبت لها في الورقة كلمات أغنية كنت أحبها كثيرًا وتعبر عن إحساسي الدائم بها.. فكتبت لها "برغم إن الكلام على الحب من نظرة كلام متعاد.. وإن الصدفة أحيانًا بتبقى بألف ألف ميعاد... ورغم إني جدع وتقيل وعمري ما اقولها بالساهل.. أنا نفسي أقولها لك في أول مرة نتقابل.. فلو كان المكان يسمح.. وست الكل لو تأذن.. أنا عاوز أقول.. إني بحبك من زمان جدًّا" وقلت لها "سما وريني السلسة كدا.. وأنا وجهي احمر أيضًا وأشعر بحرارة وجهي وكنت خجلًا جدًّا.. وقلت لها "بصي افتحي المكان دا في السلسة هتلاقي ورقة صغيرة كدا طلعيها واقري اللي فيها" وأخرجت سما الورقة فقلت لها "انتظري يا سما، افتحيها عندما أمشي" فقالت لي "استنى بس يا محمد نفتحها سوا"

ووقفت ولا أعرف أمشي أم أنتظر، أنا أريد أن أنتظر لكن ينصب العرق مني ومحرج كثيرًا لا أعرف لماذا وقلت لها "اقرئيها يا سما وأنا غدًا سآتي إلى مدرستك لكي أسأل المدرسين عن مستواكِ الدراسي وسأراكِ في الغد، وإن كنتِ تريدين أن تخبريني بشيء عن الورقة أخبريني غدًا" فقالت "استنى علشان خاطري نقراها سوا..." فجريت كالأطفال كعادتي لا أعرف لماذا أجري كل مرة.. وقلت لها "بكرة يا سما بكرة والله"

رغم حبي الكبير لسما واشتياقي الدائم لها إلا أني لا أستطيع التحدث معها في الحب وعن الحب أكثر من دقيقة.. لا أعرف لماذا.. ولكن حتمًا سأحاول مع الوقت أن أكون جنديًّا شجاعًا في حب سما.. ومضيت أفكر.. هل قرأت سما الورقة.. يا ترى ماذا فعلت عندما قرأت الورقة.. لماذا لم أنتظر؟ هل أنا غبي إلى هذه الدرجة؟! لماذا جريت؟ كان لا بد أن أنتظر.. ولكن كان قلبي طائرًا كطير كبر ريشه وأول مرة يجرب الطيران في السماء ويرى العالم من أعلى ويغرد من كثرة سعادته... واتجهت لصديقي "مشمش" لكي أسلم عليه، لقد اشتقت إليه كثيرًا أيضًا

وسأخبره أني أخبرت سما بحبي لها.. فهو لن يصدق أنني أخيرًا قد فعلتها... وقابلت مشمش وكان سعيدًا جدًّا بعودتي.. وجلسنا وحكيت له عن الكلية وعن سرقة محفظتي في أول يوم.. وحكيت له عمَّا حدث بيني وبين سما.. فكان سعيدًا جدًّا لسعادتي أيضًا.. قال لي "سأراك غدًا بعد أن أنتهي من الدراسة لنخرج ونلعب مبارة كرة قدم فلم نلعب الكرة منذ أن ذهبت للكلية" فقلت له "إن شاء الله وسأذهب أنا الآن إلى البيت لأن أخي أظن أنه قد عاد من الكلية وأنا اشتقت إليه كثيرًا وأريد أن أراه"... وذهبت إلى المنزل فوجدته لم يعد حتى الآن من الكلية.. دخلت إلى غرفتي ووضعت هاتفي المحمول على الشاحن لأنه أُغلق مني وأنا في منزل سما.. وفتحته فوجدت رسالة هاتفية من سما مكتوبًا فيها "محمد أنا هاستناك بكرة تيجي تسأل عليَّ في المدرسة علشان تعرف بس إني عند وعدي معاك وشطورة خالص".. فقد جلست عندما قرأت الرسالة وقلت لنفسي.. أود أن تخبريني يا سما بحبك ولو مرة واحدة.. أنا أعرف أنها صعبة جدًّا وكانت صعبة عليَّ.. وقد فعلت.. جاء دورك يا سما.. فأنا لا أريد أن أسمعها إلا مرة واحدة فقط لا أكثر.. من ذلك..

وقمت بالرد على رسالة سما برسالة أخرى وكتبت لها "أنا عارف إنك شطورة وأنا هاجي برضه يمكن تقولي لي حاجة مهمة مثلًا يعني.." ودق باب غرفتي فإذا بأخي قد عاد من الكلية.. فوقع هاتفي من يدي.. فقال لي "ما بك؟" فظهرت عليَّ علامات الارتباك.. وقلت له "لا شيء.. فقط أضع هاتفي على الشاحن.." وقمت مسرعًا واحتضنته وقلت له "اشتقت إليك كثيرًا يا أخي.. لنا أكثر من شهر لم نجلس ونتحدث سويًّا" فقال لي "وأنا أيضًا اشتقت إليك كثيرًا يا قلب أخيك.." وأخذته وخرجنا إلى الشرفة وجلسنا نتحدث ونضحك وقال لي أخي "أبي يفكر بأن يزوجني.." قلت له "فكرة جميلة.. نريد أن نفرح بك جميعًا فأنت الآن كبير وآخر عام لك في الجامعة ونريد أن نفرح العائلة وأهل القرية ونذبح الذبائح.. فأنا أحب أكل الطباخ كثيرًا.." فضحك أخي وقال لي "ولكن أنا أود أن أقوم بتأخير فكرة الزواج إلى أن أنتهي من الجامعة.." فقلت له "كما تريد لكن هل هناك فتاة معينة تريد أن تتزوجها؟" فقال أخي "لا ليس هناك أحد بعينه.. لكن أبي يريد أن يزوجني الدكتورة (عليا) قريبة أمي... لكن أنا لا أريد أن أتزوجها"

فقلت له "لماذا؟ فهي جميلة وقريبتنا.." قال لي "لا أعرف ولكن ليست هي التي أحلم بها كزوجة.." فقلت لنفسي أعتقد أن أخي الكبير يحب أحدًا ومحرج من أن يخبرني ويخبر أبي.. فقلت له "توكل على الله فيما تريد.. وفكر جيدًا" وقلت له سأخلد إلى النوم.. لأنني ذاهب غدًا مع صديقي "مشمش" ".. فقال "أين ستذهب..؟" قلت له "سنلعب مباراة كرة قدم في الصباح بجوار مدرسته" فقال لي "أود أن ألعب معكم لم ألعب منذ فترة طويلة وغدًا إجازة من الجامعة.. فأيقظني معك ونذهب سويًّا.." فقلت لنفسي ما هذا الحظ كيف سأذهب لسما هكذا؟! فقلت له "حاضر سأوقظك معي في الصباح".. وذهبت للنوم وأنا كلي شغف لما سيحدث غدًا بيني وبين سما.. وهل ستخبرني بحبها.. ويا ترى ماذا ستقول لي غدًا.. يومها تقريبًا لم أنم من كثرة تفكيري وشغفي لما سيحدث في المدرسة.. وبدأ نور الصباح يدخل إلى غرفتي ولبست الطقم الذي استقريت عليه أخيرًا بعدما لبست كل ملابسي الجديدة وجربتها أمام المرآة.. ووضعت من برفان أبي فأنا منذ كنت طفلًا أحب أن أتعطر به.. وأخذت ملابس الكرة معي في حقيبة صغيرة حتى لا

يشك أحد أنني لن ألعب الكرة.. وذهبت إلى سما في الصباح واستأذنت من مدرستها وأخذتها من الفصل لكي أسأل المدرسين عليها.. وعندما رأيتها.. ضحكت وفي عينها انتصار كبير وفرحة.. وكنت لأول مرة لا أرى لمعة الحزن في عين سما.. ورأيت عينها تضحك بشدة وتلمع بفرح.. وكأن اعترافي بحبي لها أضاع الحزن من عينيها.. فقلت لها "صباح الفل يا سما.. إيه الضحكة الحلوة دي بس ع الصبح كدا؟" فضحكت وقالت لي "ما حدش ضحكته حلوة غيرك والله يا محمد".

سما كانت تقول.. يا محمد.. وكأن نطقها لاسمي سراج وهاج يضيء الأرض بنور ربها.. كان نطق اسمي بلسانها له شعور مختلف عن الجميع عندما ينطقون اسمي...

وذهبت معها إلى مكتب مديرة المدرسة.. وأخبرتها أنها ابنة خالتي.. ورحبت بي المديرة كثيرًا.. وكانت فَرِحَة بتكرار زيارتي للمدرسة.. وباركت لي على دخولي كلية الإعلام.. فكنت فرحًا بفخر مديرة المدرسة بي أمام سما.. وأخبرت المديرة بأن سما ابنة خالتي وأود أن أطمئن على

مستواها التعليمي.. فأخرجت لي شهادة سما في المواد.. وأكدت لي أن سما مستواها التعليمي مرتفع.. لكن هناك بعض المواد تحتاج أن تذاكرها أكثر من ذلك.. فشكرت المديرة.. وخرجنا من مكتبها وأوصيت سما أن تهتم أكثر بهذه المواد.. واتفقنا سويًّا أنها الشهر القادم ستحصل على درجات نهائية في هذه المواد.. ودق جرس الفسحة.. وعندما دق تذكرت سما عندما كنا أطفالًا وأنا أتزاحم في وسط الأطفال وأشتري لنا من "كانتين" المدرسة.. فضحكت سما وقالت لي "كنت صغير كدا بس بتعرف تعمل لي كل حاجة يا محمد" فضحكت وقلت لها "أنا فاكر ملامح شكلك قوي وشعرك اللي كنت كل يوم أتخانق في المدرسة بسببه.." وضحكنا ونحن نتذكر طفولتنا التي قضيناها سويًّا...

وكانت مدرسة سما مشتركة بين الأولاد والبنات.. وكنت أغير على سما بشكل غير طبيعي.. فكنت شديد الغيرة وعصبيًّا جدًّا في غيرتي.. لا أعرف لماذا أنا هكذا.. لكن عندما رأيت الشباب ينزلون من على سلم المدرسة وتخيلت أن سما موجودة بين هؤلاء الأولاد طوال اليوم في

المدرسة ويرونها في الصباح وفي الدروس وفي الخروج من المدرسة زادت غيرتي بداخلي وزاد قلقي على سما.. كنت أخاف كثيرًا أن يراها أحد.. ويلاحظ فيها تلك التفاصيل التي جعلتني أغرم بها وحدي.. كان شعور الغيرة على من تحب شعورًا صعبًا.. فالآن عرفت لماذا سما كانت تغير وأنا أحكي لها عن زميلاتي في الجامعة وعذرتها كثيرًا.. وبعد ذلك صعدت أنا وسما وقلت لها "سما أريدك أن تنتبهي على نفسك ولا تسمحي لأحد بالتحدث معك.. فمن الممكن أن يأتي إليك أحد الأولاد بحجة كتاب أو درس.. فانتبهي جيدًا لنفسك ولا تعطي فرصة لأحد أن يقف ويتكلم معك.. فأنا أعرفك يا سما وأثق بك جدًّا.. وأعرف تفكير الصبيان جيدًا.. وقلت وأعلم جيدًا أنك بمئة رجل.." فضحكت وقالت لي "بمية وواحد لو سمحت.." فضحكت لها وقلت لها "عارف يا عم، عارف.."

وقلت لها "بمناسبة لو سمحت دي.. كان فيه لو تسمحي امبارح ورقة كدا يعني وواحد كدا قعد نص يوم كامل علشان ما كانش عارف

يكتب إيه في الورقة المكرمشة دي.. قال وإيه الأهبل مخبيها جوَّا السلسلة.."

فردت سما وقالت "بس ما تقولش أهبل وما تشتموش.." فوجدت نفسي أقول لسما بعدها "سما أنا بحبك قوي.."

فارتبكت سما واحمرت وجنتيها وقالت "محمد أنا داخلة الفصل.." وتركتني وجرت إلى الفصل وأنا أقف لا أعرف كيف نطقتها ولا أعرف كيف خرجت من لساني هكذا بكل سهولة.. وكأني أسألها سؤالًا مثلًا في مادة الدراسات أو معنى كلمة في الإنجليزية.. أنا أقف مكاني ولا أعلم ماذا يحدث ومن أين أتيت بكل هذه الشجاعة لكي أخبرها بحبي.. لكن عرفت الإجابة سريعًا.. فأنا أتيت بكل هذه الشجاعة من جوف قلبها ومن ملامح عينيها البريئتين ومن ضحكتها التي ظهرت على شفتيها.. هي لم تقل أبدًا أحبك كما قلتها لها، ولم تنطقها ولم تسمعها أذني منها أبدًا ولكن قالتها كثيرًا بنظرتها لقلبي وغيرتها عليَّ وضحكتها الساحرة.. وطريقة كلامها وغضبها مني ومن تصرفاتي الطائشة دائمًا.. حتى لمعة الحزن التي في عينيها دائمًا أخبرتني أنها تحبني وتحبني كثيرًا.. وقلت

لنفسي سأذهب الآن فقد دخلت سما الفصل محرجة مني ولا يصح أن أذهب إليها مرة ثانية بسبب زملائها الذين يشكون في حبي لها بسبب كثرة اهتمامي بها منذ أن كنا أطفالًا وأنا أرى دائمًا ذلك فيهم.. وكنت أسمع تهامسهم مع بعضهم البعض عندما يروننا سويًّا وأسمع بعضهم يقول بصوت منخفض أننا نحب بعضًا.

فأدرت ظهري للفصل وذهبت.. وإذ بصوت سما ينادي عليَّ "محمد استنى انت نسيت حاجة معايا.. فالتفت وقلت لها "ماذا نسيت يا سما؟" فأعطتني ورقة وقالت لي اقرأ ما بداخلها عندما تخرج من المدرسة فقلت لها "ما هذا؟" قالت لي "مش انت اديتني ورقة امبارح؟ دي ورقتك النهار دا يا محمد" فأخذت الورقة من سما وهي تبتسم وخدها أحمر وكله خجل وجريت سما إلى الفصل وكأنه فيروس انتقل مني إليها.. لا أعرف لماذا نجري من بعضنا بهذه الطريقة..

وكنت أود أن أفتح الورقة عندما أخذتها.. لكن قلت لنفسي "بلاش أحسن حد ياخد باله" وخرجت من المدرسة مسرعًا.. وعندما ابتعدت عن المدرسة فتحت الورقة ووجدت سما كتبت فيها

"أنا من الأول باضحك لك يا اسمراني" فشعرت وكأني روحي تطير من السعادة والفرح.. شعرت وكأنه انتصار عظيم لقلبي.. وتأكدت أن إحساسي لا يخونني أبدًا، ودائمًا كان دليلي في طريقي.. إحساسي دائمًا سراجي الوهاج الذي ينير عتمة بصيرتي.. وحين خفت كثيرًا وترددت كثيرًا وانقبض قلبي كان شعوري دائمًا ينقذني ويقول عينها تقول أنها تحبك.. وضحكتها الجميلة تؤكد حبها.. إحساسي والصوت الذي كان بداخلي كان طريقي ونوري.. وبقيت أدندن الكلمات وأنا أمشي في الشارع وأقول " أنا من الأول، باضحك لك يا اسمراني" حتى ذهبت إلى منزلنا...

❋ ❋ ❋

الفصل الثاني عشر

دخلت إلى غرفتي.. وأخرجت صورتها من حقيبتي وهي صورة منذ طفولتنا.. وأخذت الصورة في يدي وجلست في الشرفة وأنا أدندن بصوت غير واضح " أنا من الأول باضحك لك يا اسمراني" فسمعني أبي وقال لي "انت بتغني لعبد الحليم يا اسمراني.. لا دانا آجي لك بقى" وهو يضحك.. فأنا لم أكن أعرف أنها أغنية لعبد الحليم.. فأنا لم أسمعها من قبل.. أدخلت الصورة إلى جيبي بسرعة.. وجاء أبي وقال "لماذا تغني لعبد الحليم؟ هل أنت معجب بأحد في الجامعة.. أم ماذا؟" فقلت له "لا يا أبي لم أعجب بأحد؛ أنا فقط سمعت الأغنية في المواصلات وكلامها أعجبني لا أكثر ولا أقل.. لكن حب وهذا الكلام! ليس الآن يا أبي.. أنا ما زلت صغيرًا عليه وأريد أن أركز في كليتي فهي عملي وصعبة وأنت تعرف أنها ليست سهلة أبدًا" فقال لي "ربنا يوفقك يا ولدي.." وقال "سأشغل لك الأغنية ونسمعها سويًّا.. فأنا أيضًا أحبها" فاستغربت أبي

لأني لم أرَه أبدًا يستمع إلى الأغاني.. وقال لي "اذهب إلى غرفتي ستجد الراديو بجانب سريري على الأرض.. وبجواره شريط أحضره وشغل الشريط وناد على أمك لكي تحضر لنا القهوة" وبدأ أبي بتشغيل الأغنية وأحضرت أمي القهوة وبدأنا نشرب أنا وأبي القهوة وبدأ عبد الحليم يقول "وبعت كلمتين.. مش أكتر من سطرين.. قلت لها ريحيني وقولي لي أنا فين.. وجاني الرد جاني ولقيتها بتستناني.. وقالت لي أنا من الأول باضحك لك يا اسمراني.." نسيت تمامًا أني جالس مع أبي واندمجت في كلمات الأغنية كثيرًا وخاصة عندما قال "وبعت كلمتين.. مش أكتر من سطرين" وأنا فعلًا فعلت ذلك وكنت أنتظر رد سما.. طار قلبي مع كلمات حليم.. وكأنه يصف ما فعلته.. ويصف انتظاري.. وقال أيضًا ما كتبته لي.. وبدأت أدندن معه أيضًا وأنا أشرب القهوة فقال لي أبي "متأكد يا محمد إن ما فيش حاجة؟" فالتفت لأبي وقلت له "لالا يا أبي.. الأغنية جميلة فقط وأحببتها كثيرًا.. فعبد الحليم صوته جميل وكلماته رقيقة" فقال لي أبي "ماشي يا ولدي".. وعرفت وقتها لماذا استمع إلى الأغنية معي فأبي كان ذكيًا.. كان يريد أن يتابع رد فعلي وأنا أسمع الأغنية معه..

وللأسف أنا لم أنتبه أبدًا أني جالس معه وغرقت مع كلماتها.. لقد وصفت حالي حرفيًّا تقريبًا.. وكان عندي شغف أن أسمعها لأنها تعتبر من سما.. وتقريبًا تأكد أبي بأني أحب.. لكن لم يكن يريد أن يحرجني أو يضغط عليَّ بالكلام.. ودخل أخي عليَّ وقبَّل يد أبي وقال لي "لماذا لم توقظني لأذهب معكم في الصباح؟.. وأين كنت؟ لماذا لا تلبس ملابس الكرة؟" فقلت له "أيقظتك لكنك كنت مرهقًا ولم تستيقظ.. وذهبت بهذه الملابس وكانت معي ملابس الكرة في حقيبتي.. ولم نلعب لقد ألغيت المباراة.. وسنحدد مباراة أخرى قبل أن أسافر إلى الجامعة وسنلعب سويًّا يا أخي إن شاء الله" وقمت واستأذنت من أبي وأخي.. واتصلت على صديقي "مشمش" وأخبرته أنني لن ألعب المباراة.. وعندما أراه ليلًا أو غدًا سأخبره لماذا لن أذهب للعب معه.. وأمسكت بهاتفي وأرسلت لسما رسالة مكتوبًا فيها "وبعت كلمتين مش أكتر من سطرين قلت لها ريحني وقولي لي أنا فين.. وجاني الرد جاني ولقيتها بتستناني.. وقالت لي أنا من الأول باضحك لك يا اسمراني" وفي نهاية الرسالة قلب أحمر.. فردت سما عليَّ وقالت "محمد يا محمد.. انت

هتسافر إمتى يا محمد.." وبجانب اسمي قلب أحمر فرددت وقلت لها "هاجي لكم بعد العصر وأفهمك هاعمل إيه" وانتهت المحادثة.. وجلست أقول لنفسي.. مغرم أنا مغرم بسما.

وجاء "مشمش" صديقي في المساء وجلسنا وحكيت له ما دار بيني وبين سما وقال لي "أيوة يا عم، دا كدا بقى الموضوع حلو خالص" قلت له "أنا الآن تأكدت من حب سما لي.. أريد أن أذهب إليها وأتفق معها أن تهتم بدراستها ومذاكرتها.. وأننا سنتحدث كأننا لم نخبر بعضنا بالحب.. حتى لا يشعر أحد.. وإن حدث وعرف أحد لا يفهم الأمور بشكل خاطئ.." وذهبت اليوم الثاني بعد العصر لأفهم سما الأمور وكيف ستسير.. فأنا كنت متعلقًا جدًّا بها.. وكنت أتمنى لو نتحدث في كل ثانية ليس كل يوم ولا كل دقيقة.. لكن سما في مرحلة مهمة.. وأنا أتمنى أن تدخل كلية الصيدلة وتحقق حلمها.. ودائمًا أنا أهتم بدراستها وبها.. فلا أريد أن أكون سبب تقصير لها في يوم من الأيام.. وذهبت لسما وكنت محرج منها.. لا أعرف لماذا.. فقلت كيف سأخبرها بكل هذه

الأشياء التي أود أن نفعلها وأنا محرج بهذه الطريقة؟! فجلست أنا وسما على آخر درجة من السلم.. وقلت لها "سما أنا سوف أسافر في قطار الساعة الثالثة عصرًا في الغد.." قالت لي "ما كملتش معانا أربع أيام يا محمد هتمشي كدا علي طول..؟" كان شكل سما ببراءة وجهها وشكلها الطفولي.. وهي تتكلم بغضب وحزن في نفس الوقت.. تشبه الطفل الذي صمم أن يشتري الشيبسي وهو لا يحبه.. فكان أكثر طفولية مما ينبغي.. وإن كنت أعشق ملامحها وهي غاضبة مع لمسات من الحزن.. لكن لا أترك الحزن يصل إلى قلبها أبدًا.. أضايقها بكلامي فقط لأرى شكلها بهذه الطريقة.. وأكملت كلامي معها "ستبدأ امتحاناتي من الأسبوع القادم وأنا إلى الآن لم أنتهِ من مذاكرة كل المواد بعد.. ولا بد أن أذاكر جيدًا.. وأستعد للامتحانات" فقالت لي سما "ماشي يا محمد علشان الامتحانات بس هاسيبك تسافر.." فضحكت وقلت لها "يعني لو مش امتحانات كنت هاقعد جنبك ولا إيه؟" وأكملت.. "أريد أن أفهمك بعض الأمور المهمة.. أريدك أن تجتهدي أكثر وتذاكري.. وأنا

أود أن أتحدث معك طوال الوقت ولا أتركك أبدًا.. لكن إن فعلنا ذلك لن ننجح.. وأنا أريدك في أحسن مكان.. سنتحدث كل يوم قبل النوم عشر دقائق يا سما لا أكثر.. لأطمئن عليكِ وعلى دورسك وأطمئنكِ على كليتي وعليَّ.. وإن قصرتِ في نتيجة نهاية الترم سأخاصمك حتى تظهر نتيجة الترم الجديد وتحصلي على درجات ممتازة.. وإن لم يحدث سأنتظر إلى الترم الذي بعده.. اتفقنا يا سما؟" فقالت لي "كيف ذلك وإذا جاء امتحان صعب.. ماذا أفعل؟ لن أكلمك ترمًا كاملًا؟.. لا يا محمد هذا ظلم كبير" قلت له "وقتها سأحدد إن رأيتك تقومين بمذاكرتك على أكمل وجه.. سيكون هناك رأي آخر.. اتفقنا؟" قالت لي "بس يا محمد..." قلت لها "سما ما فيش بس.. من أولها كدا هنقول بس يا سما؟!" وضحكت لها وقالت لي "اتفقنا" وقلت لها "وماذا لو لم أحصل على تقدير عالٍ في الكلية؟" قالت لي "سأخاصمك أسبوعًا كاملًا" وضحكت.. وضحكت أيضًا.. وقالت لي "أنا أثق فيك كثيرًا.. ويومًا ما ستصبح شخصًا عظيمًا يا محمد" فضحكت.. كنت أحب كلام سما

وثقتها الكبيرة بي.. وقلت لنفسي أتمنى أن أكون هكذا فعلًا.. وسلمت على سما وقلت لها "سأغادر يا سما لكي أسافر" فقالت لي "ما تقعدش شهر يا محمد والنبي، تعالى كمان أسبوع" فضحكت بصوت عالٍ وقلت لها "الامتحانات لوحدها تلات أسابيع يا سما، احسبي من اليوم ٣٠ أو ٣٥ يوم.." فغضبت سما وقلت لها "يا سما سنتكلم كل يوم قبل النوم وسأطمئنك عليَّ وكل الأمور ستكون على ما يرام.. كل ما عليكِ أن تهتمي بمدرستك ودروسك لكي تأتي معي كلية الصيدلة في جامعة الإسكندرية.." وقلت لها "هل ستقولين لأمك أني كتبت الورقة لك؟.. أود أن تخبيرها يا سما على الأقل أنك تحبيني.." فاحمر وجه سما وقلت لها "سما هو صحيح انت بتحبيني من إمتى؟" كنت شجاعًا جدًّا وأنا أتكلم معها.. لم أتخيل أبدًا أنني سأكون هكذا معها.. وهي كانت خجلة وكان خداها ورديين من كثرة خجلها.. فقالت لي "محمد اسكت الله يخليك وامشي يلا علشان تلحق اللي وراك" فضحكت وقلت لها "دلوقت أمشي.. ماشي يا عم هامشي، بس قولي لي هتقولي لها ولا إيه؟" قالت لي

"إن أخبرت أمي ستغضب كثيرًا وأخاف أن أخبرها يا محمد.." فقلت لها "اتركي هذا الموضوع سنتحدث فيه عندما أعود مرة ثانية.." وسلمت على سما وغادرت.. وعندما كنت في منتصف شارعها.. توقفت ونظرت إلى منزلها.. فوجدتها تقف في شرفة غرفتها وتنظر إليَّ.. فضحكت لها وأكملت طريقي إلى المنزل.. وجلست مع أسرتي كي نتناول العشاء سويًّا.. وأنا طوال الأكل أفكر كيف سأخبر أمي أني أحب سما.. كنت أود التحدث مع أبي.. لكن أبي شديد في رأيه.. وجاء التردد من جديد يرودني لكن هذه المرة في أن أخبر أمي الآن أم أبي أم أكتم على الأمر إلى أن تنتهي الجامعة وأخبرهم أني أريد أن أخطب سما وأني أحبها؟ فقلت سأنتهي من الامتحانات أولًا وبعد ذلك في الإجازة القادمة سأبدأ في إخبار أمي أني أحب سما.. وانتهى العشاء وقمت لأرتب أموري للسفر من جديد إلى الإسكندرية.. ورتبت حقيبتي وجاء لي صديقي "مشمش" سهر معي وبات معي لكي يوصلني هو وأخي في الغد إلى محطة القطار.. وفي اليوم التالي.. سافرت.. كنت أريد أن أذهب

لأسلم على سما لكن كنت محرجًا.. فأنا كنت عندهم بالأمس.. وكنت قلقًا أن تشك خالتي في شيء... فركبت القطار وأنا طوال الوقت أفكر في سما.. وفي يوم خطبتنا.. وفي حديثها الأخير معي.. وفي خط يديها في الورقة الذي كان بالنسبة لي كبردية ميثاق حب بيني وبينها.. ومر الوقت ثم أخرجت كتابي وجلست لأذاكر.. حتى أصل إلى الإسكندرية.. فالوقت ضيق واقتربت الامتحانات.. ووصلت إلى الإسكندرية وذهبت إلى شقتي وفتحت حقائبي وأخرجت ملابسي ونظمتها في دولابي.. ثم ذهبت لشراء مادة بخاخة سوداء وأخرى حمراء.. كنت أكتب دائمًا بها على صخور الكورنيش.. وذهبت إلى كورنيش كامب شيزار وكتبت ما كتبته لسما في ورقتي.. وكتبت ما كتبته لي في ورقتها ورسمت قلبًا بجوار ميثاق حبنا.. حقًّا أنا كنت أعشقها كما ينبغي أن تعشق المرأة.. ورجعت إلى الشقة.. واتصلت على صديقي عبد الله.. وأخبرته أني عدت إلى المدينة واتفقنا أنا وهو أن نذاكر سويًّا قبل الامتحانات ونساعد بعضنا البعض.. ومر الوقت وانتهت الامتحانات.. وكل يوم كنت أتحدث أنا

وسما قبل النوم كما اتفقنا.. وتعلقنا أنا وسما ببعضنا أكثر.. وفي يوم اتصلت عليَّ سما في منتصف اليوم.. ولم تكن عادتها أن تتصل عليَّ أو نتحدث عبر الهاتف المحمول.. فحديثنا كله كان عبارة عن رسائل هاتفية.. فاستأذنت من محاضرتي.. وكلمت سما وكان صوتها حزينًا جدًّا.. فقلت لها "ما بك يا سما ولماذا صوتك حزين؟" قالت لي "لا أعرف لكن أشعر باختناق شديد.. فاتصلت عليك.." فقلت لها "اهدئي يا سما وكل شيء سيكون على ما يرام" وتكلمت مع سما أكثر من ساعة ما بين أن أحاول أن أعرف سبب حزنها وما بين أن أحاول أن أضحكها لكي تتحسن نفسيتها ويضيع الضيق..

وكانت أول مرة أتحدث فيها أنا وسما مكالمة هاتفية طويلة.. ومجمل كلام سما بأنها تمر بحالة نفسية صعبة برغم حلاوة الأيام التي نمر بها أنا وهي.. فنحن كل يوم نتحدث وعبرنا لبعضنا عن حبنا.. لكن سما من صغرها كانت تعاني من أزمة نفسية.. وبدأت تظهر عليها أكثر عندما كبرت.. وكانت الأزمة بسبب حادثة سرقة الآثار التي حدثت قديمًا وهي طفلة.. والآن زملاء سما يتحدثون عن هذه الحادثة.. وسما بدأت

تكبر وتفهم.. وكان الموضوع يؤثر عليها كثيرًا.. لكن أنا أخذت الموضوع معها بضحك ومزاح.. عندما فهمت منها السبب الحقيقي لحزنها وضيقتها.. وقلت لها "يا ريتني أنا تاجر آثار كان زماني غني دلوقت واشتريت قصر ليَّ أنا وانت نعيش فيه لوحدنا وكنت هاسمي نفسي المعلم مومياء.."... فقط كنت أحاول أن أزيل هم سما وحزنها... فحزنها كان حزني وضيق صدرها أهون عليَّ أن تنشق الأرض وتبتلعني ولا تشعر هي بضيق أو حزن في قلبها..

فقلب سما خلق للحب والضحك والبراءة والجمال.. ما خلق أبدًا ليحزن وأنا موجود.. ففرح قلبها كان مسؤوليتي.. سما كانت طيبة.. تتأثر بما حولها وتبكي من نظرة غضب وتضحك ويزهو قلبها من ضحكة لها.. بسيطة وجميلة في آن واحد.. قلبها قلب طفل يفرح بأقل القليل.. ولو رأيتم داخلها لذهلتم.. وقعت في حبها سهوًا من حسن براءتها..

وبعد مكالمة سما.. وبعد أن ضحكنا كثيرًا.. وقبل أن تغلق المكالمة وقالت لي "ربنا يخليك ليَّ يا محمد" شعرت بمسؤولية أكبر تجاهها.. وجاء أمام عيني لمعة عينها الحزينة منذ أن كانت طفلة.. وعرفت أن هذه

اللمعة كانت في قلبها ومن جماله ظهرت عليها هذه اللمعة.. بسبب عائلتها التي أثرت عليها بشكل كبير.. لكن أنا لا أراها مشكلة كبيرة.. فهي ليس لها أي ذنب في ذلك.. لم تختر أقارب أبيها ولا أحد يختار أقاربه.. لكن سما اختارت أن تكون مختلفة وجميلة.. ويحبها جميع أصدقائها.. اختارت أن تكون زهرة في قوم قش.. اختارت أن تفوح رائحتها باجتهادها وسط القرية.. وأن يتخذها جميع البنات في القرية قدوة لهم.. وأنا سأقف بجانب سما حتى تصل إلى هذه المكانة.. ولن أتركها أبدًا..

❋ ❋ ❋

الفصل الثالث عشر

لم أشعر أبدًا أن سما لا تتناسب معي.. كيف يظن أبي وأمي ذلك رغم حبهما الشديد لها.. على العكس.. أنا كنت أشعر دائمًا أن لا أحد يتناسب معي غير سما وطيبة قلبها.. وقلت لنفسي عندما أعود إلى القرية سأتحدث مع أمي وأقنعها بسما بأي شكل من الأشكال.. لكن دون أن أغضب أمي أو أبي.. وبالفعل.. مر الوقت ونزلت إلى قريتنا.. وكعادتي فاجأت أمي بوجودي.. وكانت تفرح أمي جدًّا.. لكن في نفس الوقت تغضب مني لأنها تريد دائمًا أن تجهز لي الأكل الذي أحبه.. ولكن كنت أقول لها دائمًا "كفاية عليَّ شوفتك يا امه".. ودخلت وسلمت على أبي وإخوتي واستأذنت منهم.. وقلت لهم أنني ذاهب لصديقي "مشمش".. وذهبت إلى منزل سما.. وفتحت لي خالتي ودخلت وسألت خالتي "هل سما موجودة؟" قالت "ليست هنا وستأتي آخر اليوم من الدروس".. الغريب في ذلك أن سما كانت موجودة في المنزل.. وأنا كنت أعرف

مواعيد دروسها كلها وأتابع معها يومًا بيوم.. وكنت أعلم أن سما في الأعلى تذاكر فيزياء.. فقد أرسلت لها رسالة كعادتي.. "ماذا تفعلين الآن" فقالت لي "أذاكر فيزياء".. لكن شعرت أن خالتي شعرت بحبنا وغضبت من ذلك.. لا أعلم ماذا حدث وهل فهمت شيئًا بشكل خاطئ.. لأن لا أحد يخاف على سما مثلي ويرعاها ويهتم بدروسها وسط يومها غيري.. فشعرت أن خالتي تظلمني كثيرًا وتراني من منظور خاطئ.. ولكن سما قد سمعت صوتي فنزلت.. ولكن خالتي قالت لها "اطلعي على فوق كملي مذاكرتك.." فاستغربت خالتي كثيرًا وسألتها "ما بك يا خالتي..؟ ولماذا تعاملي سما بهذه الطريقة؟" فقالت لي "ما فيش حاجه يا محمد بس انتو كبرتو خلاص وما ينفعش تتعاملوا كدا مع بعض.." وسما كانت واقفة على السلم وعيناها تلمعان بالدموع.. فقلت لسما "اطلعي كملي مذاكرة يا سما واسمعي كلام ماما.. واستأذنت وقلت لها "عندك حق يا خالتي.. لكن تعرفي أني أخاف على سما كثيرًا.".. وغادرت منزل سما حزينًا فتقريبًا لن أذهب إلى سما مرة ثانية بعد هذا الموقف.. وأنا في آخر الشارع وجدت هاتفي يرن..

فترددت أرد أم لا.. أنا خرجت مغمومًا وحزينًا لا أفهم شيئًا ولا أستطيع حتى التفكير.. لكن رددت على سما فوجدتها تبكي بشدة.. خطفت قلبي سما لدرجة أني كنت سأعود لكي أهدئها.. ولكن قلت لها "لماذا تبكين يا سما..؟ كل الأمور ستكون بخير.. لا تقلقي.." قالت لي "أنا سمعت صوتك ونزلت مسرعة لقد اشتقت إليك كثيرًا.. لم أرَك منذ أكثر من شهرين.. وتفاجأت من رد فعل أمي.." قلت لها "لا تبكي يا سما.. أنا أعرف جيدًا لماذا فعلت ذلك.. لقد شعرت أننا نحب بعضنا يا سما وأمي أيضًا تشعر بذلك.." فقالت "وخالتي أيضًا؟.. كيف يا محمد لم تخبرني بهذا من قبل.." قلت لها "يا سما أغلقي الآن الهاتف لأن بالتأكيد أمك ستصعد وتتحدث معكِ وستغضب كثيرًا إن سمعتنا نتحدث.. وأنا لا أريد أن تحدث مشكلة.. ونحن لا نتحدث هاتفيًّا كثيرًا.. وعندما نتحدث يكون الوقت المحدد لأتابع مذاكرتك ودروسك وأطمئن عليكِ.".. وإذ بخالتي تدخل على سما.. وسمعت صوت خد سما وهو يلطم من قوة ضربة أمها لها.. لم أتوقع أن يحدث كل هذا.. فالأمر تطور فجأة وأخذ طريقًا لم نسلكه أنا وسما أبدًا.. لم نكن

نتحدث هاتفيًّا أبدًا إلا بعض المرات والمرة التي كانت سما تشعر بضيق كبير فيها.. كنا عندما نتحدث نحكي يومنا.. وأحدد لسما مواد اليوم التي ستذاكرها.. وقبل النوم أطمئن عن حالها وأسألها في المواد لكي أطمئن على مستواها.. وأتأكد أنها تذاكر ما قمت بتحديده لها.. أنا كنت أخاف عليها كثيرًا ولا أتمنى أن يحدث أي مشكلة لها بسببي.. فعُدت إلى منزل خالتي.. لم أتحمل ما فعلته في سما.. ولكن خالتي كانت غاضبة كثيرًا.. ولم تسمعني.. وفهمت أن أنا وسما نتحدث دائمًا ونخدعها.. ولكن هذا لم يحدث أبدًا.. وقمت وغادرت منزل سما.. وأنا أعرف أن خالتي ستتصل على أمي وتخبرها بكل شيء حدث.. وكأنه حظي السيئ دائمًا.. كنت سأخبر أمي عن حبي لسما في ذلك اليوم.. وكنت أنوي ذلك منذ أن كنت في الإسكندرية.. وكنت أقرر أن أحكي لها كل شيء عندما أعود.. وحينما رجعت.. حدثت كل هذه المشاكل.. وإن أخبرت أمي الآن واتصلت بها خالتي.. ستفهم أنني أخبرتها فقط لأبرر موقفي.. فأصبح الأمر أكثر تعقيدًا.. وكان الأسوأ في كل هذا الموضوع.. شعور سما بما حدث.. فكانت رقيقة.. لم تخلق لتُضرب على

وجهها بهذه الطريقة أبدًا.. وبسببي! كنت حزينًا جدًّا.. وخصوصًا أني كنت أعلم أن أمها ستأخذ منها هاتفها المحمول.. ولن أعرف أي شيء عنها بعد الآن.. ولن أحكي معها مثلما كنا نجلس على درج السلم.. أصبح كل شيء أكثر تعقيدًا.. غير أن أمي وأبي لا يوافقان على مبدأ حبي لسما في حد ذاته.. وإن كلمت خالتي أمي.. يا ترى ماذا سوف يحدث.. وماذا سيكون رد فعل أبي تجاهي...

وقلبي المسكين الذي ليس بيده حيلة.. لا يعرف شيئًا.. فهو يسألني عن سما وعن سبب غيابها.. لا يفهم ما يحدث.. ولا يتقبل كل هذه المشاكل الكبيرة.. هو فقط يريد أن يكون مع سما ولا شيء آخر.. كطفل صغير ماتت أمه لا يعرف الجنازة ولا يعرف الكفن.. هو فقط يريدها بجواره تحكي له قصة قبل النوم.. وذهبت إلى صديقي "صلاح" وأنا كلي حزن وحكيت له كل ما حدث.. وحزن كثيرًا على حزني.. وقال لي "كل شيء سيكون على ما يرام.. وكل شيء سيأخذ وقته وسيمر.. ولا تخبر أحدًا بشيء.. فمن الممكن ألا تخبر خالتك أحدًا بما حدث.. لكي لا تحدث مشاكل.."... وبالفعل.. خالتي لم تخبر أحدًا.. ولكن أنا أريد أن

أطمئن على سما.. مر يومان.. وسما لم تخرج إلى دروسها.. فأنا أنتظرتها في كل الطرقات.. وكل مواعيد دروسها.. "بصيت في وشوش كل الناس".. لكن لم تخرج سما من منزلها.. وأنا كنت أخرج كل يوم في مواعيد دروسها.. وكنت أعلم أني لن أراها.. لأني كنت أشعر بوجود سما دائمًا قبل أن تأتي.. ولكن هذه المرة.. قلت لا بد أن أنتظرها.. فمن الممكن أن تخرج.. وجاء ميعاد رجوعي إلى الإسكندرية.. وكانت هذه أسوأ فترات حياتي.. لا أعلم أي شيء ولا أي خبر عن سما.. وأقلق كثيرًا عليها.. ولا أعرف ماذا أفعل.. حتى أمي في البيت لاحظت تغيرًا كبيرًا على وجهي وسألتني أكثر من مرة.. ولكن كنت أقول لها دائمًا "لا شيء يا أمي فقط أنا قلق من امتحانات منتصف العام لأنها اقتربت".. وحجزت قطار سيدي جابر.. وأنا أغادر ولأول مرة تمر أيام دون أن أعرف أي شيء عن سما.. ركبت القطار وسافرت دون أن أعرف أي خبر عنها.. رغم أنني انتظرت في كل طرقات دروسها.. وفي كل المواعيد التي تخرج فيها.. وسافرت دون أية رسائل تشد من أزر آمالي.. وفجأة وجدت هاتفي يرن.. وجدته صديقي "صلاح" فرددت وقلت

له "أهلًا صلاح.. لقد ركبت القطار.. اطمئن.. فأنا بخير.." فرد وقال "يا عم ما تقوليش صلاح دي وصوتك زعلان كدا.. قل لي مشمش يا عم وروق كدا".. فضحكت ضحكة صغيرة وقلت له "أعمل إيه بس يا مشمش ما اعرفش أي خبر عن سما وأنا مظلوم وهي مظلومة.. ليس لها ذنب فيما يحدث لها.. الشعور الأسوأ يا صديقي أنني أكثر شخص يخاف عليها حتى من نفسه.. والآن أمها تفهم أنني أكثر شخص يؤذيها.. أشعر بخذلان وحزن كبير بداخلي.. ورغم كل ذلك أنا أريد فقط أن أطمئن عليها.." فقال لي مشمش "لا تحزن يا صديقي كل الأمور ستسير كما تريد وأكثر.. فقط هي أيام وستمضي ولا بد أن تأخذ وقتها..".. وفجأة وجدت سما تتصل.. وأنا أكلم مشمش.. فقلت له "اقفل اقفل يا مشمش سما بتتصل".. ورددت مسرعًا وقلت "سما" فردت "محمد أنت كويس؟"

والله بكى قلبي قبل عيني من كثرة لهفتي وخوفي وتوتري عليها.. نزلت دموعي من كثرة خوفي عليها وشوقي لها.. ومسحت دموعي دون أن تشعر سما أني أبكي.. وقلت لها "أنا كويس خالص يا سما المهم انتِ

حصل إيه؟ وما بتروحيش دروسك ليه؟ أنا كنت هابعت لك رسايل لكن خفت يكون تليفونك مع أمك.. وانتظرتك كثيرًا في كل مواعيد دروسك حتى ينتهي ميعاد الدرس.. ودورت عليكِ في كل الناس بس ما خرجتيش يا سما.." فبكت سما وقالت لي "أمي أخدت التليفون يا محمد ومنعتني إني أخرج لحد ما تسافر.. ولا أعرف كيف لن أراك قبل أن تسافر ولا أعرف كيف لن أتكلم معك مرة ثانية كما نبهت عليَّ أمي! أنا يا محمد من يوم ما جيت هنا ما اعرفش غيرك، انت الوحيد اللي ذاكرت لي وعلمتني أكتب وأقرا وأرسم.. انت اللي بتزعل مني لما ما اذاكرش وأكسل.. أنت اللي بتزعق لي علشان درجات الامتحان اللي قليت فيها.. انت لما باتعب بتفكرني بميعاد العلاج وتسألني خدته ولا لأ.. انت واحنا صغيرين اللي كل يوم تتخانق مع العيال علشان ما يشدونيش من شعري.. أنت محمد.. ما ينفعش ما اكلمكش" صوت سما كان شديد الحزن وممتزجًا ببكاء وألم.. صوت سما وكلامها كاد أن يجعلني أنزل في أقرب محطة وأعود إليها.. لكن كيف أفعل ذلك وأنا على وشك دخول الامتحانات.. وحجز القطار يكون قبلها بيومين.. فإن

نزلت كيف سأرجع؟ لكن تمالكت نفسي وقلت لها "سما.. لا تبكي فأنا معكِ وبجوارك.. كل هذا الكلام ليس منه فائدة.. أنت تشعرينني بأنني أقول لكِ أني سأغادر ولن أعود.." وقلت لها "سما أنا لن أتركك أبدًا.. فأنا بجانبك.. سأكون سندك وأنتِ في سن الثمانين.." وضحكت وقلت لها "إيه دا هتعيشي ٨٠ سنة يا أوزعة؟" وتكلمت بلهجة الإسكندرية لكي تضحك.. وقلت لها "يا سما كل الأمور ستكون على ما يرام.. وقلت لها حبيبيك بيحبك ومش هيسبيك أبدًا وجنبك ومعاكِ".. فصمتت قليلًا وقالت "ربنا يخليك ليَّ يا محمد.." فقلت لها "ويخليكِ ليَّ يا سما... لاتحزني يا سما وأنا موجود.. والله أزعل منك" وأكملت "كل شيء سيمر يا سما ونحن لن نتحدث كثيرًا كالسابق لكي لا تغضب أمك.. ولا تحدث مشاكل كثيرة.. وأنا بجوارك.. سنتكلم فقط مرتين في الأسبوع أو ثلاث نطمئن على بعضنا البعض.." فقالت سما "لا يا محمد هنتكلم كل يوم زي ما كنا بنعمل.." فقلت لها "يا سما الوضع اختلف الآن.. كنت سابقًا آتي إليكم ونجلس ونتكلم ونضحك وأكلمك وأرسل لكِ الرسائل وكل هذا وأمك تعلم كل شيء.. والآن هي

شعرت بأنك كبرتِ وتخاف عليكِ ولا تريدنا أن نتكلم أو نرى بعضنا.. سيمر الوقت يا سما حتى لا تحدث مشكلة أكبر.. اسمعي كلامي أرجوكِ.." فقالت سما "يعني أنا مش هاشوفك تاني ولا هتيجي لي يا محمد؟!" قلت لها "لا مش هاجي يا سما.. ولكن سأراك عندما تذهبين للدروس من بعيد.. وسآتي إليكِ كل إجازة كما أفعل، وأسأل المدرسين عنكِ وأطمئن على مستواكِ.. كل شيء سيسير كما هو يا سما لا تقلقي، فقط هذه الفترة مهمة لي أنا وأنتِ.. فأنا اقتربت امتحاناتي وأنتِ أريد أن تدخلي كلية الصيدلة ونريد أن نساعد بعضنا البعض.. اتفقنا يا سما؟" فقالت لي "محمد بس..." فقطعت كلامها وقلت لها "سما ثقي بي وسنصل في يوم إلى بر الأمان سويًّا.. وسنكون فخورين كثيرًا بعبورنا.. قلت لكِ أبدًا لن أتركِ ولن أفلت يديكِ حتى وإن قُطعت يدي.. سألتقطك بيدي الأخرى.. أنا معك وجوارك.. كل ما أريده منكِ هو أن تثقي بي وتساعديني بمذاكرتك.. وتدخلين كلية الصيدلة فقط.. لا أريد منك أكثر من ذلك.." فقالت لي سما "أثق بك كثيرًا يا محمد.. وسأبذل كل جهدي لأدخل كلية الصيدلة.." فقلت لها "وعد يا سما؟"

قالت لي "وعد يا محمد..".. وكان هذا أول وعد بيني وبين سما أننا لن نترك بعضنا أبدًا مهما حدث.. وأنها ستدخل كلية الصيدلة وستبذل كل جهدها في ذلك.. وقلت لها "هيا يا سما تكلمنا كثيرًا اليوم.. وما تتعوديش على كدا ها، علشان ما اتكلمناش لينا كام يوم بس".. فضحكت سما وقالت لي "أنا أتعود براحتي يا محمد وبعدين ما لكش دعوة انت، أنا باكلم محمد حبيبي انت ما لك أنت..؟" وسكتت كأنها انتبهت أنها قالت لي "محمد حبيبي".. طريقة كلامها وهي تقول "وبعدين ما لكش دعوة أنت أنا باكلم محمد حبيبي" كانت كفيلة بمسح كل هموم وحزن قلبي في هذه الأيام الثقيلة في الفترة الماضية.. لم أكن أعلم أن الحب جميل إلى هذا الحد.. يجعل قلبك يتراقص أمام عينيك من كلمة واحدة في مكالمة هاتفية.. أو حتى رسالة نصية.. أو ورقة من كشكول مكتوب فيها كلمة لقلبك.. أو نظرة حب ولهفة صدفة تتخطى فيها كل الجالسين وتأتي لقلبك.. وهو أيضًا لعنة.. لو أصابت قلبك لكسرت روحك.. ولكن سما جعلت قلبي عندها.. لا أمتلكه.. وليس لي أي سلطان عليه.. تلك القصيرة الجميلة سرقت قلبي بكل تأكيد..

وقالت لي سما "هاقفل ماما بتنادي عليَّ.." وأغلقت سما وأنا أجلس أفكر بكلامها وطريقتها وهي تقول "محمد حبيبي" لأول مرة في حياتنا.. ومر الوقت وتذكرت أنني قد أغلقت مع صديقي مشمش الهاتف لأرد على سما.. لقد سهوت في تفكيري مع كلامها لدرجة أنني نسيت أن أُعيد الاتصال على مشمش.. فاتصلت عليه وأخبرته بما حدث.. ففرح "مشمش" بسعادة صوتي، وقال لي في نهاية المكالمة "قلت لك أنه مجرد وقت وسيمر.."

❊ ❊ ❊

الفصل الرابع عشر

وصلت إلى الإسكندرية وكعاداتي ذهبت إلى الكورنيش لأكتب على الصخور.. لكن هذه المرة كانت الكتابة مختلفة.. فكانت أول مشكلة تحدث لسما.. وتزيد من ترابط حبنا ولم تكسرها.. وأول وعد بيننا.. وأول كلمة حبيبي منها.. وأول مرة حزن كبير ينتهي بفرح.. يجعل قلبي يغني ويتراقص.. وكتبت أيضًا "سرقت قلبي تلك القصيرة الجميلة".. ومر الوقت سريعًا.. وانتهيت من هم الامتحانات.. وأنا وسما كل أمورنا أصبحت على ما يرام.. وعلى وعدنا أن نساعد بعضنا على المذاكرة وعلى الاجتهاد.. ولا أحد يشعر بأي شيء.. وأنزل إجازاتي وأذهب لأسأل عليها في الدروس وأطمئن عليها.. ونغوص ونحلم في تفاصلينا الصغيرة سويًّا.. ويوم دخول سما كلية الصيدلة.. ويوم تخرجي من الجامعة.. ومرت سنة سريعة بكل ما فيها من تفاصيل.. من غيرة سما عليَّ من زملائي في الجماعة واختلاطنا من خلال ورش التصوير

وجلسات العمل.. وكانت غيرة سما مشكلة أساسية بيننا.. لكن كنت دائمًا أحاول أن أهدئها.. لأنني كنت أضع نفسي مكانها.. فلا أستطيع أن أكمل تفكيري في ذلك الأمر من الأساس.. فأنا كنت أغير كثيرًا عليها.. تمامًا كما قال "اليزيد بن معاوية " في قصيدته..

أغارُ عليها مِن أبيها وأمِها ومن خطوةِ المسواكِ إن دار في الفمِ
أغارُ على أعطافها من ثيابها إذا لبستها فوق جسمٍ مُنعمِ
وأحسدُ أقداحًا تقبلُ ثغرُها إذا وضعتها موضعَ اللثمِ في الفم

كنت لا أطيق أن يتحدث معها أحد من أقاربها.. كنت أشعر دائمًا أنها مثل جوهرة غالية لا يمكن لأي أحد أن يراها حتى ولو من بعيد.. فكنت أعذرها دائمًا.. ولكن عندما كانت تغضب بسبب بنات الجامعة والتصرفات الساذجة التي كانت تحدث في بعض الأوقات كان خميسي يبدو وكأنه ثلاثاء... فالغيرة في الحب مثل درع الجندي في المعركة.. فنار الغيرة تنير لنا طريق حبنا لا تحرقنا ولا تلتهمنا.. لكن غضبها كان شديدًا في ذلك الموضوع.. ومر الوقت وجاء لي هاتف من رئيس قسم الصحافة في الكلية.. يبارك لي بأنني نجحت في العام الأول من

الجامعة.. ويريدني أن أدخل معه قسم الصحافة.. فهو يراني موهوبًا في التصوير والكتابة.. وليس هذا فقط.. لقد قالي لي أنه اختارني أنا وخمسة من زملائي لنتدرب في إحدى الجرائد.. ومن يثبت كفاءته.. سيكمل العمل في الجريدة.. ففرحت بالخبر كثيرًا وجريت إلى أمي لأخبرها.. وأخبرت إخوتي وأبي.. فكان البيت كله سعيدًا.. لكن أمي.. جلست معي وقالت "لا.. لا أريدك أن تدخل قسم الصحافة.. فهو قسم مليء بالمخاطرة.. وأنا أخاف عليك كثيرًا.. أرجوك ادخل قسمًا آخر.." فقلت لها "لكن أنا أريد أن أدخل هذا القسم يا أمي.." وذهبت لأبي لآخذ رأيه فكان رأيه من رأي أمي.. ولكن أتاح لي حرية الاختيار.. لكن أمي أصرت على أبي مرارًا وتكرارًا حتى جلس أبي معي وقال "اختر قسم العلاقات العامة.. ومارس مهنة الصحافة كما أنت في تدريبك.. ومنها تتعلم من هنا ومن هنا.. وتكون لك فرصًا أفضل في مجال العمل فيما بعد في قسم العلاقات العامة.." فاقتنعت بكلام أبي.. وفي نفس الوقت لم أكسر كلام أمي.. واجتهدت في الجريدة.. ومعظم وقتي أصبح لها.. حتى أثبت وجودي.. وبعد ذلك.. اختارني مدير التحرير لأكمل معه

في الجورنال أنا وزميلة لي.. وكانت سما سعيدة دائمًا بنجاحي.. لكن طوال الوقت كانت غاضبة بسبب طبيعة عملي وكثرة اختلاطي.. لكن مر الوقت.. وجاءت فرصة عمل أعلى في وكالة أنباء عالمية أُعجبت بمقالاتي وتصويري.. وتحدثوا معي لأكون معهم في مهرجان الإسكندرية السينمائي.. وكان هذا أول عمل كبير لي مع مجموعة من المتخصصين والمشاهير.. وكنت سعيدًا بذلك جدًّا وفخورًا به.. لأنني كنت ما زالت صغيرًا.. ووصلت إلى مكانة كبيرة سريعًا.. وكانت كل معرفتي بممثلي السينما هي التلفاز وشاشة الأخبار.. الآن أجلس معهم وأدير معهم نقاشات وأعرض انتقاداتي ورأي الجمهور فيهم.. فكان شيئًا كبيرًا بالنسبة لي.. وكنت أعرض الصور على سما بعد نهاية من العمل.. وكانت تفرح كثيرًا بذلك.. ولكن مع كل هذا النجاح والفرح.. إلا أنني كنت أعلم أنها بينها وبين ثنايا صدرها تَغِير من أي فتاة.. ولكنني كنت أتجاهل ذلك.. لأن هذه كانت طبيعة عملي.. وكنت دائمًا أحاول أنا أعوضها عن ذلك.. باهتمامي بها وأنه مجرد عمل.. وأنها لا يشبها أحد عندي.. فهي صلة رحمي وحبيبتي منذ أن كنا أطفالًا..

ومر الوقت.. وجاءت السنة الأخيرة للثانوية العامة لسما.. وكانت أصعب سنة وأهم سنة لها.. فهي التي ستحدد مصيرها واتجاه حياتها.. كان حلم حياتي أن أجد سما سعيدة يوم النتيجة بكلية الصيدلة.. ولا تشعر نفس شعوري يوم نتيجتي.. وبدأت سما دروسها مبكرًا في فصل الصيف استعدادًا لأهم سنة لها.. وبدأت أرتب مواعيد عملي وأقلل منه وأسهر بجوار سما لكي تذاكر.. وأراجع معها ما تحفظه.. وكل أسبوعين أتصل على المدرسين لأطمئن على مستواها.. واستمرينا على هذا الحال حتى بدأ عامي الدراسي الجديد.. وذهبت للكلية ورتبت جدول دراستي ومواعيد عملي... وأكملت طريقي مع سما.. أسهر معها كل يوم إلى الثالثة صباحًا.. وهي تذاكر وأنا أذاكر بجانبها.. وإن احتاجت أي شيء أفعله لها تمامًا كأنني معها.. كنت أحفظ معها قوانين الفيزياء.. ومعادلات الكيمياء.. وأبحث لها عن كلمات الترجمة وأترجم لها كل ما تريد.. وأنام في الثالثة صباحًا وأذهب إلى محاضرتي في الثامنة.. وبعد المحاضرات أذهب إلى عملي وأتصل عليها كل يوم في منتصف اليوم أطمئن عن حالها... وكنت معها خطوة بخطوة.. ولحظة بلحظة..

وأناديها دائمًا وأقول لها "ها يا دكتورة سما.. فاضل كتير في المذاكرة؟ ها يا دكتورة سما خلصتِ الفيزياء؟".. وفي أيام إجازتي وأنا في البلدة.. قررت أن أخبر أمي بحبي لسما.. وأنني أريد أن أتزوجها عندما أنتهي من الجامعة.. لكن كما توقعت تمامًا.. حزنت أمي.. وأول كلمة قالتها لي "دا اللي أنا كنت خايفة منه".. وقالت لي "أنا أحب سما كثيرًا.. لكن سما ليست مناسبة لك.. بسبب عائلتها.. تعلم أنهم متهمون في قضايا آثار كبيرة.. وهذا الموضوع من الممكن أن يؤثر على مستقبلك ومستقبل أولادك.. إن تزوجت سما.." فكان بمثابة حزن كبير وضعته أمي في قلبي بيديها دون أن تقصد.. ولكن قلت لها "يا أمي لكن هذا الموضوع ليس لسما أي ذنب فيه.. وهي ستدخل كلية الصيدلة هذا العام.. وستكون مثالًا ناجحًا لكل بنات القرية.. وأنتم تحبون سما كثيرًا يا أمي.. ولا بد أن نقف بجوارها كلنا..".. فردت أمي كلامها كله وقالت لي "أخبر أباك بما تريد" فقلت لها "يا أمي أنا أعرف رأي أبي جيدًا.. وأنتِ سندي في هذا البيت وأريدك أن تقنعيه بذلك.. وسما ستصبح دكتورة وسيكون ذلك سببًا جيدًا لتقنعيه.. وهو دائمًا يأخذ برأيك ومشورتك..

أرجوكِ يا أمي.. لا تكسري بخاطري.. فأنا أحبها منذ أن كنا أطفالًا حتى الآن.. ولم يتغير شيء في حبي لها.." فصمتت أمي وقالت لي "عندما تنتهي سما من الثانوية هذا العام.. وتتخرج أنت من الجامعة.. نرى ماذا سنفعل.." وتركت أمي وخرجت وأنا حزين.. لأنني أعرف رأيها جيدًا هي وأبي.. لكن أنا أثق أنني أقدر أن أقنعهم جيدًا دون أن يحزنوا بسببي.. لأني أعرف جيدًا أن أمي تحب سما كثيرًا هي وأبي.. ومر الوقت.. ولم أخبر سما بهذا الموضوع حتى لا تشعر بالحزن.. وأنا أريدها أن تجتاز هذه الفترة بكل تركيز.. ووجدت سما قبل امتحان الثانوية بشهر أنها تشعر أنها تنسى كل شيء تذاكره.. ولا تستطيع التركيز.. ويسقط شعرها بغزارة.. وتتعب كثيرًا.. وازداد الأمر سوءًا.. والامتحانات كانت على الأبواب.. ولكن كان الله دائمًا بجانبنا.. وقلت لسما "أنا كنت كذلك وأخي أيضًا.. وهذا طبيعي من كثرة المذاكرة.. وطول الوقت والملل.. ولكنها فترة وتنتهي.. ولا بد أن تتغلبي على نفسك في هذه الفترة حتى لا يسرقنا الوقت، وأنا أثق بكِ كثيرًا.." وذهبت واشتريت لها بلطو أبيض لكي تفرح به ويزيد من حماستها

وتتغلب على نفسها.. وبالفعل.. اجتازت سما هذه الفترة الصعبة.. وجاء أول يوم في الامتحانات.. وهي مستعدة لها.. فذهبت إليها.. ووجدت أمها تنتظر أمام باب المدرسة.. فسلمت عليها واستغربت وجودي كثيرًا.. لكن لم أهتم لأي شيء أبدًا إلا أن تخرج سما من الامتحان وأطمئن أنها قد حلت بشكل جيد.. وجلست وقرأت لها سورة يس لتيسر لها أمرها داخل اللجنة.. وبعد ثلاث ساعات.. خرجت سما وطمأنتني أنا وأمها.. وغادرت أنا لكي أسافر إلى كليتي.. فأنا أيضًا قد اقتربت امتحاناتي.. وكان لا بد أن أكون بجانب سما على الأقل أول يوم.. ومر الوقت حتى جاء يوم النتيجة.. وكان أصعب يوم عليَّ أنا وسما.. فسما حصلت على مجموع 91٪.. ولن تدخل كلية الصيدلة.. وحزنت سما كثيرًا لأن حلمها قد ضاع.. الذي طالما حلمت أن تكون فيه منذ أن كانت طفلة.. وحزنت أنا كثيرًا.. لكن كنت معها في حزنها.. واتفقنا على أن تدخل كلية الآداب.. فهي كلية كبيرة ومناسبة لها.. ولكن سما لم تكن مقتنعة بأي كلية غير الصيدلة.. ولكن تحدثت مع سما عن الرضا بقضاء الله وقدره وهذا نصيبك وسيكون أحسن لك

بكثير من الصيدلة.. ويكفي أنه اختيار الله لكِ وليس هناك أجمل من اختيار الله لأقدارنا.. فلا تحزني وأنا معك لتجتهدي في الكلية.. واختارت سما كلية الآداب.. وجاء أول يوم لسما في الجامعة.. وكنت خائفًا عليها كثيرًا من كل شيء حولها في الجامعة.. بكل أسف أصبحت خائفًا بشكل كبير بسبب ما يحدث داخل حرمها من تجاوزات وألفاظ من الشباب.. وضحك وهزار من البنات وكل شيء عندهم ليس له حدود.. وكل هذا تحت مسمى "زي أختي وزي أخويا" و"أصل إحنا صحاب"...

فكنت أخاف عليها كثيرًا أن تتأثر بمن حولها وتصبح مثلهم في يوم.. ولكن في نفس الوقت كنت أثق في سما كثيرًا.. وخصوصًا أنها كانت ترفض كل هذه الأشياء وتنتقدها.. ولا تحب أبدًا هذا.. وكانت تبتعد عن أصدقائها البنات الذين لا يرون أي مشكلة في الاختلاط.. وقدمت لسما النصائح.. ولكن كان الخوف يتملكني عليها.. وكانت أول سنة لسما.. وأنا أتخرج.. وأحضر ورق خدمتي العسكرية.. وكنت طوال الوقت مشغولًا بسما.. وكيف سأتركها.. فهي ليس لها أحد غيري

وتعودت على وجودي كثيرًا.. وكانت سما من وقت لآخر تبكي وتقول لي "كل رجائي ألا تتركني.. كيف لي أن أتحمل بعدك عني كل هذه الفترة.. ومن أين آتي بصبر أيوب.. لا تذهب إلى الجيش يا محمد.." فقلت لها "يا سما فترة وستمر.. ولا بد أن نتحمل الصعاب.. وهذه فترة حقيقة حبنا الكبير.. وأنا سأحاول أن أطمئنك دائمًا عليَّ.. كل ما أرجوه منكِ أن تعتني بنفسك.. ولا تصعبي الأمور عليَّ أكثر من ذلك.. وأدعو الله أن تمر هذه الفترة بخير وسلام.." وكان كلامي لا يزيد سما إلا بكاء.. سما كانت لا تتخيل أبدًا أن أبتعد عنها كل هذه الفترة.. وتقول لي "لقد كبرت وأنت معي وفجأة لا أجدك ولا أراك ولا أكلمك ولا أعرف هل تأكل جيدًا أم لا.. هل تنام جيدًا أم لا.. هذا الأمر مستحيل على نفسي.." فقلت لسما "كل شيء سيمر يا سما.. إنه مجرد وقت ثقيل وحتمًا سيمر.. هوني الأمر يا سما على نفسك.".. ومر الوقت وذهبت للكشف الطبي.. وكنت لائقًا للخدمة العسكرية وكلها أيام وسألتحق بمركز تدريبي.. فكلمت سما وأخبرتها أنني لائق.. فكانت تعيش على أمل ألا ألتحق بالجيش.. وحزنت كثيرًا.. وطلبت مني أن أراها..

واتفقنا أن أذهب إليها الجامعة قبل مغادرتي للمعسكر بيوم لأودعها... وخرجنا أنا وهي وقد أحضرت عروسة صغيرة هدية لها.. لأني كنت أعلم أنها ستبكي كثيرًا في ذلك اليوم.. ووصلت إلى سما.. وعندنا رأتني جلست تبكي.. فقلت لها "ابتدينا في النكد أهو.. ما لك يا سما بس؟ عيطي وانا ماشي طيب مش دلوقت.." وأخذت سما وجلسنا سويًّا أهدئ فيها.. وقلت لها "أنتِ الآن مكاني يا سما.. وأريدك أن تهتمي بنفسك وتسألي عن أمي دائمًا.. ولا أريدك أن تبكي واجتهدي في دراستك.. وأنا سأنتهي من الجيش وأتقدم لخطبتك إن شاء الله من أبيكِ.. وكل هذا سيمر، وأريدك أن تعديني أن تنتظريني ولا تتركيني أبدًا.. لأنني بكل تأكيد سأتغير في فترة الجيش.. وسأكون عصبيًّا بشكل أكبر بسبب الضغط علينا هناك.. فهناك كل شيء بالأمر.. وما لي إلا أن أقول تمام يا افندم.. فأرجو أن تهوني عليَّ تلك الفترة وعلى نفسك.. فأنا أحتاجك بجانبي أكثر من أي وقت آخر.. وأنا سأحاول أن أتصل بكِ دائمًا يا سما.. وأطمئن عليكِ.. وأنا لن أنساكِ أبدًا.. ستكونين دائمًا في بالي وقلبي ومهما تكون المسافة بيننا بعيدة ستكونين أقرب إليَّ من كل

شيء.. أنتِ موجودة داخل قلبي.. لا البعد سيفرقنا ولا المسافات تمنعنا عن الحب وأنا داخل قلبك.. سأغادر.. نعم.. لكن اعلم جيدًا أنني موجود.. والمحب لا يترك حبيبه ولو مُلئ بألف عيب.. ولو كان قُربكِ سوءًا.. ولو رفضكِ العالم أجمع.. فأنا بكِ أرغب.. سأراك في كل شيء حولي.. في مكاني وفي جلوسي وفي دعائي.. ستكونين بندقيتي ودرع أماني وقت شدتي.. يا سما أنا معك دائمًا في صلاتك ودعائك.. في مذاكرتك وفي حياتك.. تذكري دائمًا أنني بجانبك.. والمسافات مجرد وقت.. وحتمًا سنلتقي.. ونجلس ونتحدث وتغضبي مني ومن عصبيتي وتملي من غيرتي الزائدة ومن تحكماتي التي لا تحبينها.. سأعود يا سما وسيأتي يوم قريب سينتهي كل هذا العناء.. وتكونين معي لا أفارقكِ ولا تفارقيني.. سيجمع الله قلبنا على سنة نبيه قريبًا.. فلا تحزني ولا تبكي.. هوني الأمر على نفسك... وعليَّ... لكي أركز فيما أنا ذاهب إليه.. حتى لا ينشغل بالي عليكِ.. أحتاجك أن تكوني قوية هذه المرة وفقط..".. فبكت سما وتأثرت بكلامي وقالت لي "حاضر سأكون أقوى يا محمد.. بس المرادي بس.. وبعد كدا مش هتسبيني تاني أبدًا.."

قلت لها "أعدك بذلك يا سما.." وضحكت لها.. فسما كانت تحب ضحكتي كثيرًا.. وكانت تقول لي دائمًا.. "كل مرة تضحك فيها وتصغر عينيك الجميلتين... يتسع قلبي.".. لا أنسى أبدًا وهي تقول "اضحك يا محمد، اضحك يا اخويه وعينك تصغر وتكبر في قلبي..".. كل كلام سما لي وضحكتها ونظرتها ودموعها وكل شيء أتذكره جيدًا.. وكتبت كثيرًا منه على كورنيش الإسكندرية.. وهي لا تعرف حتى هذه اللحظات.. كنت أحبها بكل كياني وروحي.. كانت أميرة قلبي وتاج رأسي.. وبعد أن هدأت سما واتفقنا أني سأسلم عليها وأمشي.. أخرجت سما حافظة مال وأوراق صغيرة لكي أضع فيها احتياجاتي.. وقالت لي "اجعلها معك.. فهي تذكار.. تمامًا مثل السلسلة التي لم أخلعها منذ أربع سنوات.. وكما قلت لي من قبل التذكار شكل من أشكال اللقاء".. وأخذتها من سما.. وكنت قد طلبت منها صورة لها وهي صغيرة.. حتى لا يراها أحد وأنا في الجيش.. وهي كبيرة من عساكر الأمن والتفتيش.. لأنهم بكل تأكيد سيفتشون كل شيء.. لكن أنا كنت لا أحب أن يرى أحد صورتها.. وأعطتني ورقة.. وقالت لي "اقرأها عندما تصل إلى

معسكرك غدًا يا محمد..".. أنا كنت حزينًا جدًّا من داخل قلبي.. لأني سأشتاق لسما حقًّا.. لكلامنا وضحكنا وغيرتها.. حتى دموعها التي تشبه الأطفال.. سأشتاق إلى كل شيء.. وودعت سما وكنت قد كتبت لها ورقة... كتبت فيها "سما.. فلذة كبدي.. وبنتي الصغرى.. وصديقتي وحبيبتي وعمري.. أنا لن أكتب لكِ كلامًا جميلًا مثلك هذه المرة.. هذه المرة أريد فقط أن تهتمي بنفسك جيدًا.. لأني سأغيب عنكِ طويلًا.. ولا أعرف متى سأراكِ.. اعتني بقلبك وتذكريني دائمًا.. ولا تنسيني في صلواتك بالدعاء.. واعتني بأمي جيدًا.. حفظك الله ورعاكِ.. وجعلك أطهر البنات وأنقاهم.."

وقلت لها "افتحيها عندما أغادر.." وودعت سما والدموع تسقط من عينيها وغادرت.. لن أتحمل أن أراها تبكي أكثر من ذلك.. فوالله بكاء سما وخوفي عليها كان بمثابة نار داخل صدري.. لن تنطفئ إلا وهي معي..

❋ ❋ ❋

الفصل الخامس عشر

وجاء يوم ترحيلي.. وودعت أبي وإخوتي.. وسافرت لمركز تدريب المدرعات مع صديق لي يُدعى حسن.. كان زميل دراستي منذ الصف الأول الابتدائي.. وفرحت كثيرًا بذلك.. لأننا سنقضي فترة تدريبنا سويًّا.. وسنهون الأمر على بعضنا البعض.. وكان يوم الترحيل يومًا صعبًا بكل تفاصيله.. من تحويل حياتك المدنية إلى عسكرية.. ومن أوامر وصوت عالٍ.. و"تعالى يا عسكري في الصف جنب زميلك.." و"امنع الكلام يا عسكري" و"انت يا عسكري يا بيادة".. ولا تعلم شيئًا.. وتتبع كل الأوامر الموجه إليك.. دون أي نقاش.. كل ما أشعر بِهِ هو ضيق شديد من طريقة المعاملة.. فكل شخص بيننا لا يعرف قوانين الجيش.. فنحن ما زلنا مستجدين.. ولكن أنا كان داخلي إحساس أن هذه الفترة أسوأ أيام حياتي.. وأتمنى أن تمر سريعًا.. وأن أنتهي من خدمتي على خير.. وانتهى أول يوم ووصلنا إلى معسكر التدريب

الخاص بنا أنا وصديقي حسن.. وأشاروا إلينا أنا وصديقي حسن إلى عنبر النوم.. وكان عنبر رقم (7).. لم أنسه أبدًا بكل تفاصيله.. وعدد ساعات النوم التي نمتها فيه بإرهاق وتعب شديد بعد كل تدريب.. ودخلنا العنبر ففوجئت بالمنظر.. لم أكن أتخيل أبدًا أننا سننام على تلك السرائر الحديدية المتهالكة.. وهذه المرتبة المهترئة.. ورائحة المكان المغلق الكريهة.. ولكن كان ذلك هو الأمر الواقع.. وفعلًا هذا المكان سيكون مكان نوم لمدة ٤٥ يومًا.. وقلت لنفسي هي فترة صعبة وحتمًا سوف تمر.. وتوجهنا في طابور إلى مجمع الطعام وكان يسمى "المِيس".. لكي نأكل وجبة العشاء.. وأنا أسير في الطابور خلف صديقي حسن قلت له "سيكون الأكل جيدًا.. فنحن طوال اليوم في إرهاق وتعب وبكل تأكيد أنهم جهزوا طعامًا جيدًا لمثل هذا اليوم.." فدخلنا وأخذت سرفيس الأكل وكان عبارة عن طبق كبير مقسم إلى ثلاثة أقسام.. فيه فول ومربى ورغيفين من الخبز لي أنا وصديقي حسن.. ودخلنا وبدأنا نتذوق الأكل.. وقتها عرفت تمامًا قيمة طعام أمي وتمردي عليها في أنواع

الطعام.. لم يكن للفول أي علاقة بالفول الذي نأكله.. أما عن المربى.. فكانت مقبولة إلى حد ما.. اليوم الأول كان صعبًا من كل النواحي.. من الطعام والنوم.. حتى الحمام لم يكن مفتوحًا باستمرار.. لكن رغم كل ذلك فأنا منذ البداية قلت لنفسي أنها فترة مؤقتة ولا بد أن تنتهي.. ومرت الأيام في مركز التدريب ما بين غسل أطباق وصحون وطهي طعام العساكر.. إلى العروض العسكرية والتمارين عليها كل يوم.. وكل ذلك ولا يوجد أي هاتف.. لكي أتصل على أمي أطمئنها وأسرتي.. وأسمع كلمة "محمد" من سما.. التي لم تغِب عن بالي أبدًا.. وذهبت لعسكري قديم في معسكر التدريب.. واستأذنته أن أتحدث من هاتفه خمس دقائق.. لكن رفض في أول الأمر.. لأنه كان ممنوعًا.. ولكن اتصلت على أمي وكلمتها هي وأبي وطمأنتهم عليَّ.. واتصلت على سما.. وردت سما بلهفة كبيرة عندما سمعت صوتي.. وكانت في غاية السعادة.. ولكن لم أستطع أن أكلمها أكثر من دقيقة.. وأغلقت الخط.. الوقت كان يمر ببطء وصعوبة.. ونحن منهكون دائمًا.. من بين عروض

عسكرية وعروض تعليم السلاح وغسيل أطباق وطهي طعام.. وكنت دائمًا قبل أن أذهب إلى النوم أخرج محفظتي وأنظر لصورة سما وأقبلها وأنام دون أن يشعر أي أحد.. وفي يوم.. بعد صلاة الجمعة كان يوم راحتنا من العروض العسكرية وغسيل الأطباق.. كان يوم النظافة وغسيل ملابسنا.. وجدناهم يجمعون جميع العساكر الموجودة في أسرع وقت.. وجمعوا جميع العساكر في أرض الطابور.. والشمس كانت شديدة الحرارة.. ووجهوا رؤوسنا إلى الشمس.. ولا نعرف السبب ولماذا يحدث معنا هكذا.. واتضح بعد ذلك أنه طابور اسمه طابور الثبات.. وفجأة.. وجدت صديقًا لي أنا وحسن كان ينام معنا في نفس العنبر اسمه مصطفى.. سقط على وجه دون أي سبب.. وكان يقف أمامي.. فجريت عليه أنا وأصدقائي.. ووجدته لا يتنفس والدماء تغطي كل وجهه.. فقلت لزملائنا "هيا نذهب به إلى مستشفى المعسكر.." فغضب صف الضابط.. وأمر الجميع بالتزام أماكنهم.. ولكن صديقنا واقع على الأرض ينزف الدماء.. لم أتحمل أن أتركه وقلت "هيا بنا

نحمله إلى المستشفى.." وحدثت حالة هرج ومرج.. بسبب سقوط أكثر من خمسة عساكر من شدة الحرارة.. وحملت مصطفى أنا وزملائي إلى المستشفى.. وعدنا إلى أرض الطابور.. ووجدنا الأمن الحربي ينتظرنا.. ويحولنا إلى مكتب قائد المعسكر بتهمة التجمهر وتكسير الأوامر العسكرية أثناء طابور الثبات.. طبعًا صُدمنا.. كان هذه الموقف من أصعب أيام الجيش معي.. لم أقصد أبدًا أن يحدث أي شيء.. ولم أتجمهر ولم أفعل أي شيء.. كل ما في الموضوع أنني حملت زميلي الذي سقط وذهبت به إلى المستشفى.. ولكن الموضوع أخذ حيزًا آخر وطريقًا آخر مظلمًا.. لم نكن نريده أبدًا.. ووقفنا طوال اليوم أمام مكتب الأمن.. وحلقوا لنا شعرنا على أقل درجة استعدادًا لدخولنا السجن الحربي.. لما ارتكبناه من تجمهر وتكسير أوامر عسكرية على حد قولهم.. ومر اليوم بالكامل ونحن نقف.. والرعب في قلوبنا جميعًا.. لم نعرف مسوانا ولم نعرف ما الذي سوف يحدث لنا.. وماذا يحدث داخل سجن الأمن الحربي.. لكن رغم طول هذا اليوم وما حدث فيه.. إلا أنني كنت أثق

كثيرًا في قدرة الله.. لأن نيتي كانت خيرًا.. وبكل تأكيد لن يضيعني الله.. ومر الوقت بعد تحقيقات معنا.. وأسئلة وأجوبة.. حتى جاءت الساعة العاشرة مساءً.. قالوا لنا اذهبوا إلى النوم.. وفي تمام الساعة السابعة احضروا إلى مكتب الأمن.. وذهبت إلى عنبر (7).. ووجدته كله ينتظر عودتي.. والعنبر كله في غاية الحزن لما حدث لي أنا وبعض زملائنا من العنابر المجاورة.. ودخلت العنبر ووجدت من اشترى لي عصيرًا ومن اشترى لي مياهًا معدنية لكي أشرب.. لم أتمالك نفسي وقتها.. عندما رأيت صديقي حسن يحتضنني ويبكي وكل من في العنبر قالوا لي "حسن ما بطلش بكا عليك.. بيحبك قوي يا اخي".. والكل يعرف الظلم الذي وقع عليَّ.. وصديقي مصطفى كان نائمًا من تعبه من إصابته بضربة الشمس.. وقام وقبل رأسي وقال لي "كل دا بسببي أنا آسف يا صاحبي" قلت له "لا عليك يا مصطفى المهم أن تكون بخير وسيمر الأمر على خير إن شاء الله.. ولو تكرر الموقف لحملتك وذهبت بك إلى المستشفى مرة ثانية.."... لن يضيعني الله وسيكون بجواري.. الجميع كان يعلم

جيدًا خطورة التهم الموجهة إليَّ أنا وزملائي.. والجميع أيضًا يعرف ما معنى السجن الحربي.. وطمأنت الجميع عليَّ وقلت لهم "لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.. هيا لنذهب إلى النوم.. ودائمًا لن يتركنا الله".. لن أنسى أبدًا ملامح جميع من في العنبر وخوفهم الشديد عليَّ.. أتذكر ملامح كل واحد فيهم وشكله واسمه أيضًا.. عنبر رجال المدرعات وبعض أصدقائنا من العنابر المجاورة الذين جاؤوا ليطمئنوا عليَّ... ذهبت إلى سريري لكي أفرد جسدي من تعب اليوم وإرهاقه.. وعندما فردت جسدي تذكرت كلام أبي لي.. وكلام أمي ودموعها ودموع أختي وكلام أخي ودموع سما.. وشعرت بشعور غريب بين ثنايا صدري.. كيف لهم أن يعاقبوني على إنقاذ زميلي بدلًا من أن يكافئوني.. وأشفقت على نفسي كثيرًا.. وشعرت بظلم كبير وقع عليَّ.. يهدد مستقبلي ويدخلني السجن الحربي دون أي ذنب أستحق العقاب عليه.. لم أستطِع أبدًا أن أتماسك وسقطت دموعي بغزارة.. وكتمتها في نفسي حتى لا يشعر بي أحد.. ولكن شعر بي حسن صديقي.. وقام ليراني فوجدني أبكي.. فبكى

أيضًا.. واستيقظ العنبر كله وبكى الجميع لما حدث معي طوال اليوم.. ولا أحد يعلم ماذا سيفعلون معي في الغد.. لكن تماسكت مرة ثانية وهدأت وحاولت أن أنام... لم أنم في تلك الليلة رغم تعبي الشديد.. لكن كنت قلقًا كثيرًا رغم أني كنت أثق في الله أكثر.. لكن شعور القلق في تلك الليلة لم تنم عيني بسببه.. واستيقظنا جميعًا في الرابعة فجرًا وذهبنا للإفطار.. ودقت الساعة السابعة.. ونحن نقف أمام مكتب الأمن.. وجمع مكتب الأمن كل العساكر الموجودة في المعسكر في طابور واحد.. وقالوا لنا "أخرجوا من قام بالهرج والمرج وسندخلكم وهم الذين سيحاسبون على غلطتهم.."... فقلت لنفسي إن أخرجنا أحدًا من العساكر سيزيد العدد.. وبذلك سيصبح تجمهرًا فعلًا.. وبنسبة كبيرة لن يتركوننا.. والجميع غضب من أجل أصدقائه الذين سقطوا من ضربة الشمس.. فكلنا واحد ولم يخطئ أحد.. وقلت لأصدقائي سنمر في الصفوف بين العساكر.. لكن لن نخرج أحدًا.. لأنهم لن يتركونا في تلك الحالة.. لأن عددنا سيزيد.. وفعلًا سيكون تجمهرًا.. اقتنع زملائي

بكلامي ومررنا في الصفوف دون أن نخرج أحدًا.. وانصرف الطابور وأخذونا إلى مكتب الأمن.. فوقفنا أمام المكتب إلى أن حل الظلام علينا.. وقتها كنت أتمنى من كثرة قلقي أن أدخل السجن حقًّا وينتهي كل هذا القلق والخوف.. فماذا سيحدث لنا؟.. ودقت الساعة العاشرة مساءً.. فأعطونا الكارنيهات الخاصة بنا وحذرونا وقالوا لا تكرروا ما حدث مرة أخرى.. وإلا ستدخلون السجن.. لقد عفا عنكم قائد المعسكر بسبب قلة خبرتكم في الحياة العسكرية.. وقتها رجعت روحي إليَّ.. وفرحت كثيرًا.. وكان هذا كله بسبب دعوات أمي لي.. فهي دائمًا سَتُجاب في الوقت المناسب.. وذهبت إلى العنبر.. ففرح الجميع بأن الموضوع قد انتهى على خير.. ولكن منذ ذلك اليوم.. وأنا تغيرت كثيرًا.. وأصبحت أكثر عصبية وبرودًا في نفس الوقت.. أتمنى أن ينتهي الوقت بأي شكل من الأشكال.. أعُد الأيام يومًا بيوم.. والساعات أيضًا.. أسمع بأذني "قف.. تحرك خطوة سريعة يا عسكري.. ازحف على بطنك.."... أثر الموضوع في نفسيتي بشكل كبير وغيرني كثيرًا.. كان

كل همي أن أنتهي من هذه الفترة على خير.. ومن صعوبتها ومن أوامرها.. ومن كلمة "تمام يا افندم".. و"أوامرك يا افندم.." و"عُلم وينفذ يا افندم..".. عانيت كثيرًا لكي أتقبل هذا الوضع الجديد الذي أعيش فيه.. من كل شيء.. من قلة الماء وصعوبة دخول الحمام والاستحمام.. والطعام الذي نأكل منه فقط لنسد جوعنا.. وليس لنا أي علاقة بطعمه.. ومن مكان نومنا.. ومن أوامر ننفذها وفقط لا تفكير ولا حل آخر..

وجاء اليوم الثالث والأربعين.. جمعوا فيه جميع العساكر ليعطوهم تصريحات الإجازة.. فكانت الإجازة خمسة أيام فقط.. لكن كنت في منتهى السعادة.. وقلت أخيرًا سأذهب إلى منزلنا.. وأمي وأبي وإخوتي.. وسأرى سما.. وذهبت إلى منزلنا وأنا أسود تمامًا.. كالعبد الحبشي.. وقد قلَّ وزني أكثر من أحد عشر كيلو.. تفاجؤوا بي في المنزل.. وفرحت أمي كثيرًا هي وأبي وإخوتي.. وفرحوا بعودتي.. وجلست مع أبي وحكيت له كل ما حدث لي.. وكيف هي الحياة في منزلنا لها قيمة عظيمة وطعام أمي الشهي الذي لن أتمرد عليه أبدًا.. وجلست طوال اليوم مع أسرتي..

وفتحت هاتفي المحمول.. فوجدت سما أرسلت لي أكثر من خمسة آلاف رسالة.. وجلست أقرأهم حتى جاء الليل.. وأرسلت لها رسالة على هاتفها "خمس آلاف رسالة يا مفترية!" وأكملت.. "اشتقت إليكِ كثيرًا.. وقلبي لم ينسكِ ولو لثوان.. في وسط اليوم المتعب والمرهق كانت ضحكتك التي لم تفارقني تهون عليَّ كل شيء.."... فوجدت هاتفي يرن بعد الرسالة بثوانٍ.. ففتحت.. فوجدت سما تقولي لي "محمد.. وحشتني يا محمد.. الحمد لله إنك جيت.. دا انا من غيرك ولا أي حاجة يا محمد.. الحمد لله إنك جيت.."... وتبكي بكاءً كثيرًا وبلهفة وشوق كبير.. قلت لها "والله وأنا أيضًا اشتقت لكِ كثيرًا يا قلب محمد.." وهدأتها واتفقت معها أن أراها في الغد.. لأنني سأقضي أول يوم مع أمي وأبي وأسرتنا.. وجاء اليوم الثاني من الإجازة.. واتفقت أن أرى سما في الجامعة.. وذهبت إليها.. والله لولا أننا في الحرم الجامعي والناس حولنا من كل مكان لاحتضنت سما بكل قوتي.. فحقًّا قد وصل الشوق إلى آخره.. لم أرها منذ أكثر من ٤٦ يومًا.. ولم أحدثها إلا دقيقة واحدة في الهاتف المحمول.. فرحت سما كثيرًا بعودتي.. ولكن حزنت عندما رأتني نحيفًا

وضعيفًا واسودت بشرتي.. لم أحكِ لسما عن تفاصيل ما يحدث معي في المعسكر.. لأنها كانت ستقلق كثيرًا وتبكي.. فهي كانت تعشق البكاء.. وكأنه صديقها.. وجلست مع سما طوال اليوم.. وأكلنا سويًّا.. وكان يومًا جميلًا.. كله حب من القلب والعيون تلمع من كثرة الشوق والدموع تقف على حافة العين من الفرح.. وكنت دائمًا عندما أجد وقتًا كافيًا.. كنت أكتب لسما ورقًا.. وأعطيه لها.. وكان من ضمن هذه الأوراق.. ورقة لم أعطِها لها.. كنت أنوي أن أعطيها لها في آخر يوم في خدمتي العسكرية.. كان مكتوبًا فيها "أول بُعد حقيقي بيننَا.. فلا هاتف ولا رسالة ولا مكالمة تغيث حبيبك الذي يقتله الشوق في معسكر بعيد في الصحراء.. لكن أنتِ بندقيتي التي أحملها في خدمتي.. ولن أتركِكِ قط.. حتى أذوق الموت.. أنتِ سلاحي وأماني.. أنتِ سمائي التي فوقي.. أراكِ في كل النجوم والكواكب.. حتى القمر.. كل ليلة أنظر إليه وأبلغه بحبي وشوقي إليكِ.. وأوصيه أن يخبرك.. لا أعلم إن كان يخبرك أم لا.. لأن عساكر كثيرة حولي يخبرونه أيضًا بأحوالهم لعشاقهم.. والساهرون الذين يشكون القمر ويوصونه كثيرون.. لكن القمر أخبرني

يومًا في منامي أنني أكثرهم صدقًا وحبًّا لقلبك.. ولن ينسى أبدًا أن يخبرك بكل حروفي إليكِ.. دمتِ أماني وبندقيتي التي تحميني.."

وفرحت سما كثيرًا بالورق المكتوب.. ونظرت في عين سما وقلت لنفسي.. "كيف لك أن تترك تلك العين مرة ثانية وهي تلمع بكل هذا الحب وهذا الشوق إليك؟!" وقلت لنفسي "أعان الله قلبي الصائم عنها على البُعد".. وانتهى اليوم سريعًا.. وأوصلت سما وذهبت إلى منزلنا.. واتصلت على صديقي "مشمش" لنقضي يومًا سويًّا قبل أن أعود إلى المعسكر.. وانتهى يوم صديقي مشمش سريعًا أيضًا.. لا أعلم كيف يمر الوقت بكل هذه السرعة هنا.. وحتى جاء آخر يوم في الإجازة.. وذهبت لسما لأودعها.. وجلست كعادتها تبكي ولا تريدني أن أغادر.. لا أعلم لماذا كنت قلقًا على سما هذه المرة.. لكن ليس بيدي أي حيلة إلا أن أسافر وأكمل طريقي.. وأوصيت سما على أمي وعلى نفسها.. وكان لا يهون عليَّ أبدًا أن تعاني وتبكي.. وقلت لها "بسم الله على قلبك حتى يهدأ.." وجلست أضحك معها حتى ابتسمت.. وأعطيتها ورقة كتبت لها فيها "لا تخافي إن تأخر قلبي عليكِ" وقلت لها "افتحيها عندما

تعودين إلى المنزل.." أنا كنت حزينًا هذه المرة أكثر من سما بكثير.. لكن إحساسي دائمًا يكون بداخلي.. نفسي تحدثني هذه المرة وتقول لي "سوف يحدث شيء".. لكن توكلت على الله وغادرت.. وأفهمت سما أني لن أتأخر هذه المرة.. سأذهب وسوف يرحلونا على الوحدات الخاصة بنا.. وسيكون لي نظام إجازات ثابت.. وكل شيء سيكون على ما يرام...

ذهبت إلى منزلنا.. وكان آخر يوم في الإجازة.. كان شعورًا سيئًا.. جلست أفكر في الطعام وفي النوم وفي الأوامر العسكرية التي لا نقول لها "أوامر يا افندم.." و"تمام يا افندم".. يوم عودتي من الإجازة كان بمثابة سكين بارد يقطع من جسدي بالبطيء.. نمت واستيقظت على أذان الفجر.. صليت واتصلت بصديقي حسن.. وجاء إلى منزلنا وغادرنا.. وودعنا أهلنا وسافرنا إلى المعسكر ونحن في غاية الحزن.. لكن بدأت أضحك مع صديقي حسن وأذكره بمواقف مضحكة ونحن أطفال.. حتى أهون علينا ما نذهب إليه.. ووصلنا على بوابة الدخول.. لا أعلم لماذا انقبض قلبي بهذه الطريقة وأنا أدخل إلى البوابة.. لدرجة أنني وقفت قليلًا وقلت لحسن "هيا نجلس خمس دقائق قبل أن ندخل

إلى المعسكر..".. وجلسنا وهو يقول لي "مش عاوز أدخل يا محمد.. يا ريتنا ما جينا".. كان كلام حسن هو نفس الكلام الذي يراود نفسي وتزيد عليها انقباضة قلبي.. لكن قلت له "يا صاحبي فترة وهتعدي.. كل اللي احنا فيه مجرد وقت.. وأكيد هيعدي..".. حسن صديقي كان طيبًا وجميل القلب.. كان يكره كل الأوامر.. يرفض كل ما يدور حولنا.. وكل ما نحن فيه.. كنت أشعر به جيدًا لأنه نفس شعوري.. وأنا معه في كل شيء.. لكن هو كان يظهر عليه أثر ما نحن فيه سريعًا.. وكنت أعذره دائمًا.. الأيام صعبة ومخيفة أكثر مما ينبغي.. ودخلنا أنا وحسن.. وفي اليوم الثاني من عودتي.. حلمت بحلم غريب.. حلمت بأني أنا وسما نجلس في قطار.. وكنا لا نكلم بعضنا.. وقلت لها "يا سما أنا خلاص هاسيبك ما دام مش مستحملاني وانتِ عاوزة كدا.. وما دام كذبتِ عليَّ، مش هاقدر أسامحك تاني..".. نظرت لي سما نظرة غريبة.. أول مرة أراها في عينيها.. وقالت لي "أنا أصلًا كنت ناوية أسيبك.." وقامت من جواري لتقفز من القطار.. وجريت خلفها لكي أمسك بيدها.. لكن لم ألحق بها.. وقفزت سما.. واستيقظت من نومي مفجوعًا

وزادت انقباضة قلبي التي دخلت بها من بوابة المعسكر أكثر وأكثر.. وجلست على سريري أفكر في سما.. وفي الحلم الغريب.. ونظرة عينيها إليَّ.. خفت كثيرًا عليها.. ولكن لا أستطيع حتى أن أتصل بها ولو لدقيقة واحدة.. ولكن استعنت بالله.. وأخرجت زجاجة مياه من دولابي.. وقمت لأتوضأ وأصلي.. حتى يهدأ قلبي من فزعه.. ومر الوقت البطيء المهلك أخيرًا.. حتى جاء يوم الترحيل إلى الوحدات.. وحتمًا سنفترق أنا وحسن صديقي بكل تأكيد.. كنت أقلق عليه كثيرًا لأنه طيب القلب ونقي.. ولكن للأسف الجيش لا يعرف طيبة قلب ولا نقاء.. لا يعرف سوى الأوامر وتنفيذها.. لا يعرف سوى الميري والعسكري.. وجاء دوري في الترحيل قبل حسن.. مع أني كنت أتمنى أن يترحل حسن قبلي لأساعده في ترتيب مخلته وأوصله مع زملائه.. لكن حدث العكس ورتبنا أنا وحسن مخلتي أولًا.. في وسط دموع فراق حسن وجميع أصدقائي في عنبر (7).. فكنت أحب الجميع والجميع يحب بعضه البعض.. رأينا بعضنا في وقت الشدة ووقفنا بجوار بعضنا أكثر من سبعين يومًا مع بعضنا.. ننام ونأكل ونتدرب سويًّا.. نسهر في حمى

من يتعب.. ونواسي من يحزن.. ونضحك ونغني ونلعب سويًّا داخل العنبر.. لم أنسهم أبدًا وأنا أودعهم.. ودائمًا أشكر تلك الأيام الصعبة التي جمعتني بهم.. وأوصلني زملائي إلى أتوبيس الترحيلات.. وجاء يوم صعب جديد.. شحنوا جميع العساكر المرحلين إلى وحداتهم إلى محطة القطار في القاهرة.. وركبنا جميعًا القطار دون طعام أو مياه.. لا أحد يعرف إلى أين سنذهب.. أو ماذا سيحدث معنا ونحمل مخلة على ظهورنا أكثر من ثلاثين كيلو.. نسير بها في الشوارع.. والناس تنظر إلينا بعطف وشفقة.. وآخرون يقولون "ربنا يهونها عليكم" ويدعون لنا.. حتى دخلنا محطة القطار.. وعندما رأيت القطار زادت انقباضة قلبي على سما.. لا أعرف لماذا! وتذكرت الحلم ونظرة عينيها لي بقسوة شديدة.. وعندما قامت مسرعة من جواري وقفزت من القطار.. وبدأت أنظر في وشوش الناس.. كنت أعتقد أني سأرى سما.. لا أعرف لماذا.. لكن كنت قلقًا كثيرًا عندي دخولي.. وجلسنا.. ولم يكن هناك مكان في العربة المخصصة لنا.. فنادى الضابط المسؤول عن ترحيلنا وقال.. "العسكري اللي ما لقاش مكان يحط مخلته على الأرض ويقعد

عليها.." وجلست على مخلتي وأنا أفكر يا ترى إلى أين سيأخذني القطار.. وماذا سوف يحدث لنا.. وبعد ساعة.. عرفت أننا سوف نذهب إلى مكان اسمه الانضباطي.. وهذا المكان مثل دورة تدريب على التعامل داخل الوحدات.. يضبطون فيه العساكر ويعلمهم الصبر على أشد الخدمات والتعاون داخل الوحدات.. وكلام كثير حولك من العساكر.. ومن الجميع.. يتحدثون عن صعوبة المكان.. من قائد لا يرحم.. وتعامل غير آدمي.. وجميع العساكر خائفون يومها من كثرة الأقاويل وكثرة الكلام حول هذا المكان الذي سوف نذهب إليه.. كادت رأسي تنفجر من التفكير.. وزادت عليها وخزة في قلبي.. لم أشعر بها من قبل.. وقتها كنت سأبكي من كثرة همي.. لكن دعوت الله أن يكون أهلي بخير.. هم وسما.. وأن تكون تلك الوخزة ليس إلا من ألم الترحال وكثرة الأقاويل.. ومن كثرة الصداع الذي جاءني من كلامهم، أخرجت مناديل ووضعتها في أذني حتى لا أسمع أي صوت حولي.. وقلت لنفسي تسير الأمور كما تسير.. وأنا لن أكون أغلى من شهداء سيناء.. وجلست أقنع نفسي وسط كل ما حولي من وخزة قلبي وقبضته وشعوري بالقلق

من المكان وحلمي بسما الذي وتر قلبي كثيرًا وبين جوعي وعطشي طوال اليوم.. حتى جاءت الساعة العاشرة مساءً.. ووجدت نفسي في محطة سيدي جابر.. وكان هذا هو الشيء الوحيد الذي طمأنني قليلًا.. وأسعد قلبي.. وقال الضابط عندما وصلنا أنكم ستكون خدمتكم في الإسكندرية.. فرح كل العساكر الذين في القطار.. وأنا أيضًا كنت أفرح لكن ليس كثيرًا.. فأنا أعلم جيدًا أن المكان يكون بالقائد الذي تكون تحت قيادته.. والدور المخصص لك في وحدتك.. لكن أن تكون خدمتك على وجه العموم في مدينة مثل الإسكندرية.. شيء جميل في حد ذاته..

❋ ❋ ❋

الفصل الأخير

ووصلنا إلى الإسكندرية وبدأت أطمئن قليلًا.. لأني كنت أحب الإسكندرية كثيرًا، وقضيت فيها فترة دراستي في كلية الإعلام.. ودخلنا إلى معسكر الانضباطي.. ووزعوا العساكر في طوابير.. وبدؤوا يسألوننا.. "هل هناك أحد يطبخ.. أو عمل في فنادق من قبل؟" وعددوا بعض المهن.. حتى ندهوا وقالوا "هل هناك أحد يعمل كمصور.." فرفعت يدي.. وسألني "هل صورت من قبل..؟" قلت لهم "نعم.. فأنا خريج كلية الإعلام.. وأفهم في التصوير جيدًا.."... فسجلوا اسمي في الملتحقين بقيادة المنطقة الشمالية العسكرية.. ورحلونا إلى هناك.. ووزعوني على إدارة الشؤون المعنوية.. ودخلت مكتب الشؤون المعنوية والجميع يقول لي "حظك حلو حظك حلو إنك هتصور..".. فمن الظاهر أن المصور في المنطقة العسكرية يكون أكثر راحة عن باقي العساكر.. وبعد ساعات قليلة.. دخلت لقائد فرع الشؤون المعنوية..

وسألني بعض الأسئلة.. وحدد لي العمل كمصور للقائد مع بعض الخدمات والعمل الإداري في المكتب.. كنت أعتقد أنني سأقوم بالتصوير فقط.. لكن للأسف الموضوع كان غير ذلك.. كانت مسؤولية كبيرة.. وخرجت من مكتب القائد مع ضابط كان اسمه "أحمد صالح" وكان في غاية الاحترام والتهذيب.. فطلبت منه أن أكلم أسرتي فأعطاني هاتفه.. فحدثت أمي وأبي وطمأنتهم عليَّ.. وأخبرتهم بمكاني الجديد.. واتصلت على سما.. لكن لم ترد عليَّ.. فقلقت كثيرًا.. لأن الحلم ما زال في ذاكرتي.. وأفكر فيه دائمًا.. وأرجعت الهاتف للضابط.. وقال لي "ستمر فترتك سريعًا.. ويبدو عليك أنك محترم.. ومن بيئة طيبة.. حاول أن تكون أمورك بخير.. ولا تأمن لأحد.. وخصوصًا أن المكتب بكل ما فيه سيكون مسؤوليتك.. وإن سُرق شيء.. ستكون أنت المسؤول.. فكن في حالة عالية من التركيز دائمًا.." فشكرته وقلت له "إن شاء الله".. وذهبت إلى مبيت الجنود.. ولم أجد لي سريرًا.. وكان عليَّ الانتظار إلى أن تخرج دفعة جديدة من الجيش.. وآخذ أنا سريرًا منهم.. وتعرفت على صديق لي اسمه عبد الرحمن.. كان جديدًا في الفرع أيضًا..

وسيعمل معي في التصوير وأعمال المكتب.. فذلك الذي سأقضي معه معظم وقتي.. وكان يبدو هادئًا وطيبًا.. تعرفنا على بعضنا سريعًا.. وفي آخر اليوم.. جربت أن أتصل بسما مرة أخرى.. فردت عليَّ.. فرددت بلهفة "سما أخبارك إيه؟ رنيت عليكِ بس ما رديتيش.." وكنت لم أسمع صوت سما منذ أن كنت في مركز التدريب.. وجدت صوت سما متغيرًا ولم أجد فيه نفس اللهفة التي عندي.. وشعرت بنفس الوخزة التي شعرت بها في القطار في قلبي وقلت لها "سما.. صوتك متغير كثيرًا.. هل حدث شيء معك؟ هل أنتِ بخير؟ لن أستطيع أن أتحدث معك كثيرًا لأنه ليس هاتفي.. وسأنزل إجازة خلال أسبوع.. وسأراكِ.." قالت لي "أنا بخير.. وكل أموري على ما يرام".. صوت سما الذي طالما كانت فيه لهفة دفء.. أشعر بها دائمًا.. لم أجدها هذه المرة.. لا أعرف ماذا حدث لسما.. وهل هي بخير أم ماذا.. فقلقت كثيرًا وكان إحساس بداخلي يقول إن حتمًا حدث شيء.. ومر الوقت وجاء دوري في الإجازات.. ونزلت أول إجازة.. نزلت إلى الكورنيش.. وتمشيت عليه.. وقرأت ما كنت أكتبه لسما دائمًا.. ونزلت في كورنيش كامب شيزار.. وكتبت لها من

جديد على الصخور.. وخرجت.. وركبت القطار وغادرت إلى سوهاج.. إلى منزلنا.. وإلى أمي وأكلها اللذيذ الطازج.. إلى النوم في سريري والاستيقاظ بدون صافرة شاويش في الرابعة فجرًا لأنظف العنبر وأحلق ذقني وأستعد لطابور اللياقة المُرهق.. وعندما وصلت.. لم أجد رسائل كثيرة من سما مثل أول مرة.. شعرت بشعور غريب داخلي لأول مرة تجاه سما.. شعرت وأن حب سما قد قل فجأة.. صوتها في آخر مكالمة في الهاتف لم يكن فيه نفس الحنين والشغف بنطق اسمي.. لا أعلم ماذا يحدث.. وخزة قلبي.. والحلم.. أشعر بخوف شديد داخل قلبي.. لكن قلت "لا مشكلة.. وأرسلت لسما رسالة بأني قد رجعت إجازة من الجيش.. وقلت لها "أنا قلق كثيرًا عليكِ.." لا أعرف ما هو المُقلق حقًّا.. إن إحساسي لم يخنِّي أبدًا.. وكنت أشعر بتغير كبير من سما.. لا أعلم ما السبب.. لكن كنت أكذب إحساسي.. ردت سما عليَّ آخر اليوم برسالتين "حمد الله على السلامة.." "أنت عامل إيه".. لم يكن أبدًا هذا الرد المتأخر الذي توقعته منها.. مع أنه في ظاهره طبيعي.. لكن حبي لسما ولهفتي عليها وقلقي.. كان أكبر بكثير من أن يأتي الرد في رسالة

تقليدية متأخرة.. فسألت سما "هل أنتِ بخير؟.. ولماذا لم ترسلي لي رسائل تحكي فيها عن يومك مثل أول مرة يا سما؟!" فقالت لي "لا شيء.. فقط مشغولة بالمذاكرة.."... لا أعلم لماذا زادت وخزة قلبي بهذه الطريقة.. ويا ترى ماذا حدث لسما لتتغير بهذا الشكل المفاجئ.. واتصلت على سما فلم ترد.. وأرسلت لي رسالة "أنا الآن لن أستطيع أن أرد عليك.. وسأتصل بك في الغد.. والآن سأذهب لأنام.. لأن عندي جامعة في الصباح.." أتعجب كثيرًا من رد فعل سما الذي تأكدت من وقتها أن هناك شيء حدث.. لكن لا أعلم سبب التغيير المفاجئ.. لأول مرة سما لا تكون مشتاقة لسماع صوتي.. ولا حتى لرؤيتي.. سما التي كانت تبكي لي لكي تراني.. لم تعد مهتمة بعودتي من الجيش.. ولا حتى بأخباري.. لم تقل لي "يا رب الليل يخلص بسرعة والنهار ييجي علشان أشوفك.."... لا أعلم لماذا كل هذا الوهن.. وأين السبب لكل ذلك.. ولماذا سما متغيرة بكل هذه الطريقة؟! سألت سما "ما بك يا سما..؟ لم نتحدث منذ فترة طويلة وأنا عائد من إجازتي واشتقت إليكِ كثيرًا.. ولم ترسلي لي رسائل كثيرة.. والآن تردين بعدما أرسلت رسالتي بعدة

ساعات.. والآن ستذهبين للنوم.. وحتى لم تقولي لي أريد أن أراك في الغد.. ولا اتفقنا على ميعاد.. هل حدث شيء مني؟ ولو حدث شيء.. لمَ كل هذا التغير يا سما؟".. كدت أبكي وأنا أتحدث معها.. ومنتظر ردها.. قالت "لا، لا شيء.. فقط أنا مرهقة وعندي دراسة في الغد.. واليوم مشغولة.. وسنتفق على يوم قبل أن تنتهي إجازتك.."... كلام سما كان ثقيلًا على قلبي بشكل كبير.. وطريقتها التي تتحدث بها كانت غريبة.. كنت أشعر أن شخصًا آخر يكلمني.. مستحيل أن تتحدث سما هكذا أبدًا.. لم تعتذر سما عن كلامنا وحتى ولو مشغولة فعلًا ومرهقة.. طريقة كلامها لم يكن فيها أي شوق ولهفة لي.. وقلت لنفسي.. "من الممكن أن يكون من كثرة بعدي عنها وقلة كلامنا حدث ذلك.. وبدأت أسأل نفسي.. عن كل ما يدور حولي.. ولا أجد إجابة.. فقلت لنفسي "أتركها على راحتها.. وهي لا تخفي عنك شيء.. ومن الممكن أن تتحسن في الصباح.. وتتحدث معك.." ولم أنم تلك الليلة من التفكير في تغيرها المفاجئ.. وجلست أتذكر منذ أن كنا أطفالًا.. وطريقة تعاملنا ولهفتها الدائمة لي ولمعة عينيها لي.. وسهري معها وهي تذاكر.. وهي

مريضة.. وبراءة وجهها.. فقلت حتمًا قد حدث شيء كبير مع سما.. وهي لا تريد أن تحكي لكي لا تشغلني بها وأنا في الجيش.. لا تريد أن أقلق عليها.. وأرسلت لها رسالة بعد صلاة الفجر.. أطمئن عليها.. وأسألها إن كان قد حدث شيء تحكي لي.. فأنا لم أنم من قلقي عليها.. وجاء الصباح.. ولم تتصل عليَّ.. ولم ترد على رسالتي.. وقتها قررت أنني لن أرسل إليها رسائل قبل أن ترد على رسائلي.. وردت وقالت لي "أنا بخير.. لكن سأنام لأستيقظ في الصباح للجامعة.."... استغربت ردودها الباردة أكثر وأكثر.. حتى قررت أنني لن أرسل لها رسائل حتى تتطمئن هي عليَّ وتكلمني.. مرت الإجازة.. وجاء آخر يوم فيها.. وهي لم ترسل لي أي رسائل.. ولم تطمئن عليَّ حتى.. لم أتخيل أبدًا أن تكون هذه سما.. ولا أعرف السبب.. ولماذا تتعامل معي بهذه الطريقة.. وسافرت.. ولم تكلمني سما.. ولم أكلمها.. واستمريت على هذا الحال ٢٢ يومًا.. لا أعرف ماذا حدث.. ولماذا لا تكلمني.. وكل يوم أحاول أن أكلمها.. وأقول لنفسي لا هي لم تطلب أن تراك حتى! ولم تهتم لأمرك.. التغير المفاجئ الذي حدث بين شمس وضحاها.. هذا مؤلم

حقًّا للروح.. تعودت عليها.. وكنت تضع في مخيلتك أنها لن تستطيع أن تتخلى عنك ولو لثانية.. وجاء يوم.. أمرنا القائد أنا وصديقي عبد الرحمن أن نجمع مخلتنا لأننا سنشارك في تصوير العملية الشاملة في سيناء للقضاء على الإرهاب.. استغربنا الأمر كثيرًا أنا وصديقي.. لأننا نتبع المنطقة الشمالية.. فكيف لنا أن نذهب لسيناء! لكن فهمنا مؤخرًا أن كل المناطق ستشارك في العملية الشاملة.. فذهبت أنا وصديقي عبد الرحمن إلى سيناء.. ونحن لم نكن مقتنعين كثيرًا بأننا ذاهبون للمشاركة فقط.. وعندما وصلت إلى هناك.. دخلت لعسكري قديم هناك.. وقلت له "نحن عساكر جديدة.. وستكون هذه وحدتنا.. ونحن نستطيع أن نلتقط الصور جيدًا.. هل نخبر أحدًا أننا نصور أم المصورون يتعبون هنا..؟".. قال لي العسكري "اوعى تقول إنك بتصور.. المصورين هنا كلهم ماتوا.. وبعتوا يجيبوا مصورين من باقي المناطق مكانهم..".. أنا كنت أسأله خصيصًا لأحاول أن أعرف دور المصور في هذا المكان.. فصُدمت أنا وعبد الرحمن من رده.. ولكن قلت لعبد الرحمن "لو لينا عمر.. هنرجع بالسلامة.. لا تخف يا صديقي

والموت في سبيل الله ووطننا شرف لنا وعزة.. وكان عبد الرحمن يصبرني وأصبره على الأيام.."... وجاءت سما في الوقت الصعب وتغيرت فجأة.. دون أي أسباب.. كانت في بالي دائمًا.. وأقول "كيف لو مُت؟ سأموت وأنا لم أكلمها.."... ومشيت أكثر من ثلاثة كيلوات لكي أطمئن عليها.. فأنا كنت أخاف أن أموت ونحن متخاصمين.. وفتحت سما عليَّ.. لكن لم ترد.. وكان صوت زملائها حولها.. يضحكون ويمزحون.. يبدو أن هاتف سما فتح قبل أن تسمعه.. وسمعت صوتها تضحك مع زميل لها.. لكن سما لم تخبرني من قبل أن لها زملاء صبيان.. وكانت دائمًا تنتقد البنات الذين لهم أصدقاء من الصبيان.. وبحكم عاداتنا وتقاليدنا.. فذلك عيب ولا يصح أبدًا.. والأغرب من ذلك.. أن سما كانت تشتكي لي كثيرًا من بنات خالتها وزملائها من سنها بسبب ذلك الموضوع.. وهي تعلم جيدًا أني أغير كثيرًا.. وسمعت زملاءها وهم يقولون لها "سنغادر الإسكندرية اليوم في الساعة السادسة مساءً.." وصوت الأغاني عال في المكان.. لم أفهم شيئًا مما حدث.. إن سما مع مجموعة من زملائها في الإسكندرية.. وقد قالت لي منذ فترة

كبيرة أنها ستذهب مع زملائها البنات في رحلة داخل سوهاج.. ولم أمانع ذلك.. لأني كنت أعلم جيدًا أنها تحتاج إلى تنزه ما بعد ذهابي للجيش.. وكنت أريد أن تتحسن نفسيتها وتصبح على أحسن حال.. أغلقت الخط.. واتصلت ثلاث مرات.. ولم ترد سما عليَّ.. وحاولت في المرة الرابعة.. لكن أغلقت الخط وهو يرن ولم ترد عليَّ... وقعت في الأرض مكاني.. وشعرت أن الأرض تلتف من حولي.. وزادت وخزة قلبي.. ولا أعلم ماذا يحدث.. وهل هي في الإسكندرية فعلًا دون أن تخبرني.. ومنذ متى وهي لها أصدقاء صبيان يضحكون ويمزحون معها.. وتضحك وتمزح معهم؟! وكيف قبلت بذلك؟! وهي دائمًا تنتقد من يفعل ذلك.. قلت لنفسي لا.. ليست هذه سما الطفلة البريئة الجميلة التي ربيتها على يدي.. قلبها طيب.. لا تعرف الكذب.. ومن المستحيل أن تجرح قلبي أبدًا بهذه الطريقة.. هي تعلم جيدًا كم أغار عليها وكم أحبها منذ أن كنا أطفالًا.. وتعرفني جيدًا وتعرف ماذا أحب وماذا أكره.. حاولت أن أتصل على سما مجددًا لأفهم ما يحدث من حولي.. وتعطيني مبررًا لما سمعته من هاتفها، ومن ذلك الشاب الذي يضحك معها..

ومتى ذهبت إلى الإسكندرية.. وكيف ذهبت دون أن تخبرني.. رأسي كادت تنفجر من التفكير.. كنت قد ذهبت لأصالحها خوفًا من أن أموت ونحن متخاصمين.. وهي تضحك وتمزح مع زملائها في الإسكندرية.. لم أخبرها بأني في سيناء حتى لا تقلق.. وكنت حزينًا كثيرًا منها ومن تصرفاتها الأخيرة والغريبة معي.. لكن الآن.. أنا قد فهمت سبب كل هذه التصرفات.. وشعوري بوخزة قلبي والحلم الذي حلمته..

عُدت إلى المعسكر.. والدموع تتساقط من قلبي.. وأرى الرمال تبتلع دموعي من كثرتها.. وإلى الآن لا أصدق.. وأشعر أنه مجرد كابوس.. وأخرجت صورة سما من محفظتي.. وجلست على الرمال.. أسألها كل الأسئلة التي لا أجد ردودًا لها.. ولا ترد.. تنظر إليَّ في صورتها وعينها تلمع وفقط.. الأمر بالنسبة لقلبي كان فاجعة.. لأنها تغيرت تدريجيًّا دون سبب واضح.. ذهبت إلى المعسكر.. ووجدت عبد الرحمن ينتظرني.. لكن عندما رآني قال لي "ما لك؟" قلت "لا شيء يا صديقي.." قال "هل أهلك بخير..؟ ولماذا عينك حمراء هكذا..؟"..

تماسكت وقلت له "قامت عاصفة رملية عندما كنت أطمئن على أهلي.. لا عليك أنا بخير".. وجاء الليل وذهبت ثانيًا في وسط الصحراء.. أحاول أن أجد هناك أي إشارة لأتصل بسما.. رغم أن اليوم كان مرهقًا.. مشيت أكثر من ثلاثة كيلوات.. وعمل وتصوير متواصل طوال اليوم.. وأقف على قدمي.. وأنفذ الأوامر.. وأقول "حاضر يا افندم.. وتمام يا افندم".. وقلبي ينزف.. ولا أحد يرى الدم منه...

حب حياتي منذ أن كنت طفلًا.. تغير فجأة عليَّ.. وأنا الآن في سيناء.. وهي لا تعلم شيئًا عني.. ولا تتصل لكي تطمئن عليَّ.. كيف لها أن تأتي بكل هذه القسوة لقلبها.. من أين عرفتها؟ أين طفلتي؟ والله من أكثر ما جعلني أحبها هو لين قلبها وطيبتها.. أصبحت مثل المجنون.. لا أفهم شيئًا.. ولا بيدي أي حيلة.. اتصلت عليها ولم ترد.. وبعد أن انتهيت من المحاولة أُغلق هاتفها.. رجعت وأنا لا أشعر بأي شيء غير أن قلبي ينشق بين ثنايا صدري.. وعقلي يشعر بشلل تام.. بدأت أشعر أن سما تتهرب مني.. لكن لماذا تتهرب مني.. ماذا فعلت لها.. لقد كانت حبي في كل مراحلها.. منذ أن كنت طفلًا حتى أصبحت ناضجًا..

ذهبت إلى سرير في العنبر.. وأنا أفكر وأقول "إزاي سما نايمة دلوقت وأنا باموت؟! حتى مش قادر أنام من ألم قلبي.. إزاي قلبي هاين عليها وقدرت ما تكلمنيش كل دا؟! مستحيل تكون دي سما".. وعيني تبكي.. وأكتم دموعي حتى سقطت رغمًا عني.. وشعر بي صديقي عبد الرحمن.. وجسدي يرتعد من كثرة دموعي التي أكتمها.. استيقظ من نومه وقال لي "ما بك يا صديقي؟ لماذا تبكي بهذه الدرجة؟ ماذا حدث؟.." فحاولت أنا أتماسك ثانيًا وقلت له "لقد حلمت بكابوس شديد..." وجلست أقرأ القرآن حتى غفلت عيني.. واستيقظت بوخزة في قلبي أفزعتني من نومي.. لأبدأ يومًا جديدًا.. لا أعرف ماذا سأفعل فيه.. ومتى سينتهي كل الذي كنت أركز فيه.. وجوه العساكر التي كنت أرى فيها فقط عقارب الساعة والجميع ينتظر دوره.. إما لينهي خدمته العسكرية.. أو ليستشهد وسط أرض الفيروز.. ومر الوقت وانتهينا أنا وصديقي عبد الرحمن من مأموريتنا على خير.. ونزلنا إجازة.. وعندما بدأ هاتفي يجمع الشبكة.. اتصلت على سما.. فرن مرتين.. ولم ترد.. رأيت تغيرها عليَّ تدريجيًّا.. وكان أهون لقلبي أن تتركه وتغادر قبل أن

أراها تتغير عليه بعد كل هذه السنوات الطويلة... وسألني عبد الرحمن صديقي وقال لي "أراك حزينًا لك فترة.. وتبكي كثيرًا وأشعر بك يا صديقي.. لكن أتجنب أن أسألك دائمًا.. ما بك؟ لأني أراك تُفضل الصمت.. ولكن من الممكن أن أساعدك إن حكيت لي.. عينك يا صديقي حزينة بشكل كبير ومحزن.. احكِ لي يا صديقي وحتمًا سنجد حلًّا سويًّا.." قلت له "سأحكي لك في الوقت المناسب يا عبد الرحمن.. لكن إذا أردت أن تساعدني.. ادعِ الله أن يلطف بقلبي.. فهو حقًّا يؤلمني وحزين وموجوع.. فلا تنسني من دعائك.." ومر الوقت.. وأنا وعبد الرحمن نتحدث حتى وصلنا إلى الإسكندرية.. وقلت لنفسي لن أتصل على سما أبدًا مهما كنت أحبها.. لقد هان قلبي عليها.. ولم تنظر لحالي ومحنتي في الجيش.. ولم تقدر غيابي ولم تحترمه.. كيف يمر بها الوقت دون أن تشعر أنها تفتقدني؟! بدأت أشعر أن هناك شخص بداخلي يقول لي "اسكت.. ما تقولش كدا على سما.. أنت ما تعرفش ظروفها إيه.."... بداخلي شخصان.. شخص يحبها منذ أن كان طفلًا ويتعلق بها.. ولا يستطيع التخلي عنها.. يشعر بالنقص ولو حوله ألف

شخص.. بدون وجودها.. وشخص قاسٍ.. كره تصرفاتها معه.. يتحدث بعقله ويسأل نفسه بالمنطق عن كل ما يحدث.. ولا يوجد إلا رد واحد دائم.. يقول "من أراد هجرك رأى من ثقب الباب مخرجًا.. ومن ابتغى قربك صنع من الجدران مدخلًا".. وجلست أتحدث مع نفسي وقلت في الأخير.. سأتصل آخر مرة.. وردت عليَّ سما وهي مترددة.. وصوتها غريب على قلبي.. وهي تقول "أهلًا.. إزيك؟" فقلت لها "أهلًا إزيك!!".. بعصبية شديدة.. وقلت لها "فيه إيه؟ انتِ ما بترديش على تليفونك كل دا ازاي؟! وما بتحاوليش حتى ترني عليَّ ازاي..؟! فيه إيه يا سما؟".. كنت غاضبًا جدًّا وقلبي موجوع في آن واحد.. ردت بكل برود وقالت لي "أصل ما كنتش باشوف موبايلي".. قلت لها "ما بتشوفيش اتصالي يا سما؟.. طب اسئلي عليَّ، اسئلي على أخوكِ وحبيبك.. شوفيني كويس ولا لأ حتى.. دا انا في الجيش يا سما وبعيد عنك؟" فسكتت سما وقالت لي "أصل أنا بقيت أشتغل.. ومش فاضية.." فسكت وقلت لها "تشتغلي؟.. تشتغلي إيه يا سما؟ وشغل إيه اللي من غير ما اعرفه دا يا سما؟.. إزاي تشتغلي من غير ما تعرفيني

يعني؟! هو إيه التوهان اللي أنا فيه دا..".. فردت بكل برود "ما انت في الجيش هاعرفك ازاي؟! وبعدين أنا اشتغلت خلاص.." تأكدت وقتها أن كل شيء تغير في غيابي.. وأن سما بحثت عن بديل لي.. كنت أرى نفسي كل حياتها ولا أقارن بشيء.. كما كانت تقول لي "أنت عالمي وحياتي ولو وضعوا الدنيا في كفة ووضعوك في أخرى لن أختار غيرك..".. واختارت غيري.. وأيضًا وعدتني كثيرًا أنها لن تتركني أبدًا.. ولن تفلت يدي.. وعندما غبت عنها في أول بُعد حقيقي.. ورغمًا عني.. أفلتت يدي.. قالت لي "كيف للروح أن تغيب والروح في الروح تُقيم؟ وسلبت روحها من روحي وكأنها ملك الموت.." وعدتني ألا تخون العهود التي بيننا.. وخانت.. سما تغيرت بالبطيء على قلبي.. والآن.. في أول مرة بعد كثير من محاولات وصولي إليها.. ووخزات قلبي وروحي المنهكة.. تُحضر نفسها للرحيل.. ولكن لا تعرف كيف تفعلها.. تريد أن تتركني.. لكن بإرادتي.. تريد أن تترك القلب الذي رعاها منذ أن كانت طفلة تُمسك في ذيل فستان أمها.. إلى أن أدخلها الجامعة.. تتركه لدقات قلبه تقتله دقة تلو الأخرى.. تترك مَن سهر

الليالي كأنه أم وأب وأخ وحبيب.. تترك من اختارها دونًا عن العالم أجمع.. تترك من وعدها آلاف الوعود.. تتركه بعد أن اختارت معه أسماء أولادهما في المستقبل.. تترك من تخطى كل الجالسين ليكون بجوارها وسندها...

وأكملت ردي على سما وقلت "تستني اللي في الجيش لما يرجع بالسلامة يا سما.. مش ممكن ما يرجعش أصلًا؟.. تستنيه وتاخدي رأيه.. ويروح يشوف مكان شغلك والناس اللي هتشتغلي معاهم كويسين ولا إيه.. ويشوف الشغل دا مناسب معانا وبعد كدا تقدري تكوني ناجحة فيه قد إيه يا سما.." وسألتها.. "ورُحتِ إسكندرية من غير ما تقولي لي ليه يا سما؟.. وازاي.. ومين اللي كنتو بتضحكو سوا دا يا سما؟.. دا انتِ طول عمرك تقولي لي إن دا حرام وبتكرهي البنات اللي تهزر مع ولاد.. ومن إمتى وانتِ ليك صحاب ولاد؟.. حصل إمتى كل دا؟ وكنت أنا فين يا سما؟.. انتِ سما حبيبتي أكيد ولا أنا باحلم ولا إيه..؟ ردي عليَّ وقولي لي يا سما.. قولي لي إنك ما خنتيش أي وعود قلتيها لي.. وإنك طيبة وقلبك جميل زي ماهو وما خنتيش.." فردت سما

وقالت لي "محمد.. أنا مش هاسيب شغلي..".. سما تقريبًا لم تقل لي "محمد" منذ آخر مرة بكت فيها وأنا عائد إلى مركز التدريب.. كانت آخر مرة رأيت الحب في عينها والشوق والحنين لي..

وقطعت كلامها وقلت بعصبية وصوت عالٍ "شغل إيه دا..؟! ردي عليَّ وعلى أسئلتي.." فردت وقالت لي "انت أصلًا ما لكش حق تتدخل.." فصمت وقلت لها "صح.. ما ليش حق أتدخل يا سما.. صح.. زرعت ورويت وكبرت وعلمتك تحطي حدود للناس ازاي وسهرت معاكِ وكبرتك وفي الآخر بقى ما ليش حق أتدخل.. وأول حد تتحط ليه حدود أنا... ربنا يعوضني يا سما... آخر مكالمة بينْنَا دي يا سما.. ولو عاوزاني وباقية عليَّ.. ترجعي سما أم عيون بريئة وطيبة.. وبقلب طفلة.. وتلغي كل الشغل اللي اتعمل من غير ما اعرف دا.. ولو رجعتِ مش هيبقى فيه شغل يا سما.. وأنا هابقى سي السيد.. ومش هينفع أكون غير سي السيد.. وهنتحاسب على كل اللي فات يا سما.. وتفهميني كل حاجة.. ولو مش هتعملي كدا يا سما.. يبقى أنا هامشي أنا وأرفع الحرج عنك.. وعيشي حياتك زي ما انتِ عاوزة.. بس أنا لو مشيت.. عمري ما هارجع يا سما.." فصمت قليلًا وقالت لي "أنا مش

هاسيب شغلي يا محمد.. مهما حصل".. قلت لها "خلاص يبقى هتسيبيني أنا يا سما.. ولو قفلت ومشيت.. مش هارجع.. فكري كويس يا سما.. أنا محمد اللي علمك تتكلمي ازاي.. وتستهجي الحروف ازاي.. وحبك في كل مراحل عمره.. وعاش كل حاجة حلوة معاكِ.. واختارك من وسط العالم كله.. ورغم كل اللي عملتيه.. هيزعل شوية منك.. بس في الآخر ما يستغناش عنك.. بس لو مشيت.. مش هارجع يا سما.." قالت لي "اللي يريحك يا محمد اعمله.." سكت وقلت لها "خلي بالك من نفسك يا سما.. مع السلامة"... وأغلقت الهاتف.. وجلست مكاني.. كان كل رجائي منها ألا تتركني.. وتتمسك بي.. وتعترف بخطئها الكبير في حقي.. لم أقل وداعًا أبدًا.. كنت أريد أن تقول لي "لا ترحل".. كنت أريد أن أسمع منها أي كلام يهدئ قلبي وفجعه.. أي شيء يهدئ الوخزة التي أستيقظ عليها كل يوم من نومي.. ولو قليلًا.. كنت أريد أن أغضب منها وتصالحني وتعتذر لي على كل ما حدث...

لم أكن أبدًا ضد عملها.. كنت أريدها ناجحة دائمًا.. كان من الممكن أن آخذ إجازة من عملي وأجلس بأولادنا من أجل مؤتمر مهم لها..

يجعلنا نفتخر بها جميعًا.. لكن بما يتناسب مع أسرتنا الصغيرة التي هي أهم من كل شيء..

"خلتني شبه الطفل التايه من أمه... يتمتني وهي عايشة.. حتى محاولتي رغم إنها كانت تؤذيني.. لكن حاولت.. اختارت سما كفة غير كفتي لأول مرة في حياتنا... لا أعرف كيف سأنسى سما.. وحب كل هذه السنين.. كيف سأنساها وأنا كنت أترك لها مكانًا بجواري في سريري قبل أن أنام.. كيف سأنساها وأنا أحبها بكل مشاعري.. أربط حبها بالأماكن والأشجار والطيور.. كيف ومن الذي سينسى قلب الطفل الصغير الذي أحبها منذ أن رآها أول مرة.. أم قلب الصبي المراهق الذي طالما انتظرها لسنين في الشوارع والطرقات قبل وبعد دروسها.. أم شاب الجامعة الذي كانت عينه مليئة بالحب والدفء والحنان لقلبها.. أم عسكري الجيش الذي قام من حلمه على فاجعة كسرت قلبه وهي تقفز من القطار وتفلت يديه... من سينسى فيهم حبها؟!

بدأت أشعر بدوران داخل رأسي وألم في قلبي ودموع تسقط من عيني لا تتوقف.. وجلست أفكر في نفسي.. هل أنا سيئ لهذه الدرجة..؟ هل أنا لا أحبها..؟ هل أنا آذيتها دون أن أشعر..؟ لماذا فعلت سما كل ذلك دون علمي.. لماذا تغيرت بكل هذه السرعة.. وخصوصًا في هذه الفترة الصعبة التي أمر بها.. وهل تركتني سما فعلًا..؟.. أم أنها ستعود وتطيب خاطر قلبي المجروح.. وقلت لنفسي.. صلاح صديقي، صلاح.. سأتصل عليه.. أريد أن أتحدث معه.. واتصلت عليه وصوتي مليء بالدموع والحزن وقلت له "سما سابتني، سما سابتني وخانت كل العهود اللي بينْنَا وما اختارتنيش يا صلاح.." فزع صلاح وقال لي "اهدا يا محمد انت فين بس دلوقت..؟" قلت له "أنا في الإسكندرية وراجع اليوم إلى سوهاج.. قال لي "اركب وتعالى الآن.. وسأقابلك في محطة القطار.. وسنجلس ونتحدث وكل شيء سيكون بخير.. فقط اركب وركز في طريقك" واستمر في الحديث معي حتى ركبت القطار.. ووجدته ينتظرني في محطة القطار.. واحتضنني وأخذ حقيبتي مني وحملها.. وقال لي "كل الأمور ستكون بخير.. لا

تقلق" وذهبنا إلى منزله حتى لا يشعر أبي وأمي بما حدث لي.. وجلست معه وحكيت له كل تفاصيل الفترة الماضية.. وبدأ يواسيني ويقول لي بعض الكلمات الطيبة.. كان يشعر بقلبي جيدًا ويحاول أن يهدئه وقلت له "هل أنا سيئ لهذه الدرجة يا صديقي..؟" فرد وقال "سيئ؟؟ انت ما تتعوضش يا محمد، والله ما تتعوض.." فسكت وفكرت في كلمته وقلت لنفسى "أنا ما اتعوضش فعلًا.. مش ثقة في نفسي أو لحُسن صفاتي لأني أكيد فيَّ عيوب.. ويمكن بعضها لا يُطاق".. على قد ما هي ثقة في صدق وإخلاص كل حاجة كنت باقدمها من جوايا فعلًا.. ومن كل حتة في كياني بمنتهى الحب والرضا.. حتى لو على حساب نفسي..؛ الإنسان ممكن يضيع عمره كله يدور على شخص وفي.. يتفانى عمره بس عشان يشوفه كويس.. عشان كدا أنا ما اتعوضش فعلًا" وبدأت أستعيد قوة قلبي من كلمة صديقي... لكن شعرت بدوران كبير داخلي وجلست أفكر في آخر مرة كنت مع سما.. وهي تبكي لأني مغادر لمعسكر التدريب.. وكل عينها حب وشوق لي وتتمنى ألا أغادر.. وسما التي كلمتني آخر مرة في الهاتف.. وتخيلت أن سما وهي تمر من الشارع

بجواري.. اصطدمت بسيارة ووقعت على الأرض غريقة في دمائها.. وهي بين يدي.. وأنا لا أستطيع أن أساعدها بأي شكل من الأشكال.. وتموت بين يدي وأنا أصرخ في الشارع وأحملها على يدي.. وأجري بها للمستشفى.. ثم أفيق من هذا التخيل وأتذكر كلامها وهي تقول لي "ما لكش حق تتدخل" وأرجع مرة ثانية لأتذكرها وأنا أحملها وأنظر ليدي وهي مليئة بدماء سما.. وألوم نفسي.. وأقول كيف لي أن أتركها تموت.. كيف ماتت وتركتني.. سما لم تمت أبدًا.. وبدأت أقول لصديقي صلاح "أنا حرام عليَّ أنا اللي موِّت سما وما جريتش على المستشفى بسرعة.. كان ممكن سما تعيش يا صلاح.." فبكى صديقي صلاح على حالي.. وقال لي "اهدا يا محمد اهدا.." فهو بدأ يشعر وكأني في حُمى وأُخرف بالكلام.. ولا أتقبل فكرة أن سما من المستحيل أن تتركني بهذه الطريقة في هذا الوقت إلا بالموت.. ومر الوقت وأنا ما بين أن سما ماتت.. وما بين صوتها وهي تقول لي "ما لكش حق تتدخل.."

وجلس صلاح معي طوال الوقت ويتكلم ونتحدث ويحاول أن يساعدني.. وبدأت أحكي له عن ألمي وإرهاق قلبي وأنا في المعسكر..

وهو يُهدئ قلبي بكلامه الطيب الهادئ وانا أقول له "لم تكن يا صديقي عيني تبكي بإرهاق وألم فقط.. والله قد وصل الأمر بأن بكت روحي... بكت حتى وأنا نائم... كنت أستيقظ بدموع تسقط من عيني وثقل في روحي.. مثل الورقة المبتلة في الماء.. ترى كم هي ضعيفة؟!"

أنظر إلى الكلام المشوش والحبر الأزرق الضائع من الكلمات يطفو على سطح الماء.. ترى هشاشة الورقة وتوهان كلماتها.. كنت كذلك.. هشت روحي مثلها تمامًا.. لم يكن الأمر سهلًا أبدًا يا صديقي... عظم الله أجر قلبي المسكين..."

"حتى الهوا الساقع والخوذة والشدة والأفرول والسلاح والكاميرا والتصوير والمكتب.. ما كنتش حاسس بصوت قائد مزعج بينده اسمي بأعلى صوته وبشخطه.. بس علشان عاوزني أجيب له كوباية ميه.. نوم ع الأرض في الخدمة مرة ضلوعي تتكسر.. ومرة أنام وأنا معيط.. عارف إني راجل وما يصحش.. بس الموضوع كان يستاهل إني أعيط.. صدقني ولسَّا مكمل نومة الأرض وتعب العظم.. بس دا كان كله هاين بقلقها وخوفها عليَّ.. كان هاين بحنيتها ولمعة الحب اللي جوا عينيها.. اللي زاد

عليَّ دلوقت أكبر من كل دا، وجع قلب والوخزة اللي باصحى من النوم كل يوم بسببها.. كان كل حاجة ليها حل... إلا فراقنا...

لكن هي اختارت الطريق اللي هي عاوزاه وسابتني لنفسي..

إحساسي بالمسؤولية تجاهها كان إحساس كامل من وهي صغيرة.. ومن يوم ما شفتها وعرفتها.. كان فيه حاجة ليها مختلفة.. ودقة حب مع أول نظرة.. المسؤولية بقت كبيرة.. وخصوصًا إنها كبرت معايا.. والمجتمع اللي احنا فيه بقى يخوفك مليون مرة على اللي منك.. بيخلي المسؤولية مش مجرد إحساس تجاه شخص بإنك معاه وخلاص.. بالعكس.. دا المسؤولية اللي عندي ليها كانت حتى واخدة بالها من لبسها القطن اللي يريحها.. من رموشها اللي لو وقع رمش بس منهم ممكن يزعلني يوم كامل.. أنا كنت بحبها بمسؤولية كاملة.. علشان كدا كنت هاتجنن لما راحت وسافرت واشتغلت من غير ما تعرفني.. كنت خايف عليها من الشغل والناس اللي فيه.. لكن أنا كنت واثق فيها هي لأبعد الحدود.. كان لازم أكون عارف كل الخطوات قبل أي حد.. وأكون

معاها وأساعدها زي هي ما عودتني.. بس هي اختارت طريقها لوحدها وما فكرتش فيَّ.."

وبقيت على هذا الحال والصراع الذي بداخلي.. هل ماتت سما ولم أستطِع أن أنقذها.. أم تغيرت عليَّ فعلًا... وهي الشخص القاسي الذي استطاع أن يقتل قلبي؟! ومر الوقت.. وانتهت الإجازة... ورجعت إلى وحدتي.. وعندما رجعت كُلفت بتنظيف المخازن.. وأكملت مسؤوليتي... نفسيتي في ذلك الوقت تكاد تكون مدمرة.. فلا أجد نفسي ولا روحي ولا عقلي... طوال الوقت أتخيل مشهد سما وقلة حيلتي وأفيق على صوتها وهي تقول لي "ما لكش حق تتدخل"... أنا شخصان... لا أعرف من أنا.. من نفسي فيها.. ونزلت إلى المخازن.. ونسيت المخازن مفتوحة من كثرة تفكيري فيما فعلته سما.. وسُجنت ٢١ يومًا في سجن انفرادي.. لا أكلم أحدًا ولا أحد يكلمني.. أستيقظ من النوم على وخزات في قلبي وألم بين ثنايا صدري.. وبكاء قلبي الذي كان أعظم وأكثر ألمًا من بكاء عيني.. وأسأل نفسي.. كل ذلك الوقت ولا

تشعر سما بأنها تفتقدني..؟ ماذا لو تعلم أنها السبب في كل ما أنا فيه الآن.. ماذا لو رأت أخاها وصديقها وحبيبها وابن خالتها وكل شيء لها في سجن حربي ليس له أي ملامح من الحياة...

ومر الوقت.. وانتهت عقوبتي.. لكن لم أنسَ ولم يهدأ قلبي ولو مرة... هناك مواقف لم أنسها ولن أنسى الكلام الذي قيل فيها... محفور داخل عقلي بأصوات أصحابها...

وعرفت بعد أسبوع من سجني أنني سأنزل إجازة.. فات أكثر من شهرين.. وكنت على أمل أن ترسل سما أي شيء.. لكن لم يحدث.. فقلت لنفسي.. لا بد أن أنساها.. ولا أفكر فيها.. وسيمر الوقت حتمًا.. ويعوضني الله عن كل شيء.. وأما عن ألم قلبي.. بكل تأكيد سأجازى عليه، وأنا الآن في حضرة قضاء الله وقدره.. ولا بد أن أرضى.. ولنا يوم عند الله يجمعنا... وسأخبره بكل شيء... وسأقول له يا رب لقد أفجعتني في قلبي.. وغدرت بي.. وسأشتكيكِ لله رب العالمين.. وسيحكم بيننا في كل شيء... كنت وسأكمل دعائي لها.. لعله يهيئ الأسباب ويهديها لنفسها..

ونزلت إجازتي.. وأمي وأبي في غاية القلق عليَّ.. كنت أخبرتهم بأني في مأمورية ولا يوجد شبكة.. لأني لو أخبرتهم بسجني كان من الممكن أن تموت أمي من القلق عليَّ.. وذهبت لمشمش صديقي.. وبدأت أحكي له عن سما من جديد.. لكن غضب كثيرًا مني وقال لي "فوق يا محمد دي عمرها ما حبتك.. اللي بيحب حد عمره ما يسيبه يوصل للي انت فيه دا أبدًا.. مستحيل يا محمد.. فوق وخلي بالك من نفسك.. أنت فعلًا تستاهل الأحسن من كدا بمراحل"

ومن المؤسف حقًّا أنني لم أستطِع أن أدافع عنكِ مرة أخرى.. فكلما قلت "ليست كما تظنون.. ليست بهذا السوء.. إنها أنقى من ذلك.. فقط إنها الحياة".. قالوا "إياك أن تنسى ما فعلته بك.."

حقًّا لقد خذلتني وكسرت خاطري أمامهم جميعًا، والأسوأ من ذلك.. ذاك الشعور..

"كنت أعتقد أنكِ كسرت خاطري مثلهم.. لكن في الحقيقة.. اكتشفت أنه لم يكن لي أي خاطر لينكسر أو يهزم"...

وبدأت أعد نفسي لنسيان سما.. أو بمعنى أدق لأنسى كل تفاصيل حياتي الماضية.. لأنها كانت كل حياتي.. أعلم جيدًا أن النسيان لن يأتي في يوم وليلة.. وأعلم أنه يحتاج لمعجزة.. لأنني أحببتها بكل قلبي.. لكن كل ما فعلته بي يساعدني على محوها من حياتي.. لأني رغم كل شيء قدمته بكل حب وإخلاص.. إلا أنها لم تفكر حتى في شعوري وقلبي.. وكأنها نسيت كل شيء.. لم تحاول أن تتصل عليَّ وتطمئن حتى على أحوالي.. لا أعرف كيف سأنساها.. ولا نوع علاج يجعل قلبي يهدأ.. ولا مسكن لوخزة قلبي التي أستيقظ عليها كل صباح.. لكن كنت أثق كثيرًا أنني سأنسى كل شيء.. وسأعد نفسي لذلك.. حتى يأتي يوم وأستيقظ فيه بدون وخزة في قلبي.. أو ألم بين ثنايا صدري.. حتمًا سيأتي يوم يُذكر فيها اسمها ولن أنتبه لما سيقال عنها.. كل شيء سيكون على ما يرام.. ولن يضيعني الله أبدًا.. وأثق فيه كثيرًا.. نعم سأشتاق إليها كثيرًا وإلى الطفلة الصغيرة التي أحببتها.. وإلى براءتها وطيبة قلبها ولمعة عينيها وهي تتكلم معي وتغازلني... لكن رحمة الله عليها... سأتجهز للنسيان.. وسأكون بخير.. ومر الوقت وأنا أحاول أنا أنسى.. وأتجاهل

كل شيء يخصها.. وأتعامل بشكل طبيعي بقدر الإمكان.. الألم في قلبي يزيد.. والوخزة لم تخف بعد.. لكن دائمًا أقول... رحمة الله عليها... أعلم جيدًا أني تخليت.. لكن محاولتي الأخيرة قبل أن أتخلى.. هي أكثر ما ساعدني على القرار.. وأشعرني بالراحة.. وكل شيء حتمًا سيمر.. وستقف على قدمك من جديد.. لكن فقط تأهب للنسيان ولا تندم على ود قدمته في يوم.. أو لأنك أحببت من قلبك وأعطيت كل المشاعر بإخلاص ولم تجد سوى الغدر.. وفجيعة قلبك وبهتان روحك بسببهم..

وفي الأخير.. لن تكون مثلي يا صديقي...

فأنا فهمت مؤخرًا أنني لم أترك أثرًا لوجودي... مثلي مثل العدم... فبكل سهولة استغنوا عن الود... وتركوني لدقات قلبي... وشعور الفقدان... لأشتاق لشخص غير موجود... ملامحه تعيش بيننا فقط في ملامح وجهه وقصر قامته ولثغة لسانه الخفيفة... أما عن ذاك الذي هوى له القلب كثيرًا... وسهرت له العين سنينًا ولمعت في حبه مثل شعاع الشمس المنشق من السحاب... منطلقًا إلى الأرض لتنير بنور ربها... مات من الحياة... لأنه لم يحبني من كل قلبه كما فعلت...

فأطعمته من فؤادي... ومع ذلك تركني ورضي بفتات الطريق... كنت أبث الأمل فيه دائمًا... كنت خير عون وخير عطاء لقلبه... فكنت الكل الجميل الذي لا يُعوض...

ومع ذلك... لا تعلم حقيقة أمرهم... هل تركوك وهجروا... أم ماتوا وأوفوا...

وضعتهم في تجاربي السيئة... ومضيت... فأنا لا أخسر أبدًا... تعلمت ونضجت ورأيت بعيني كل شيء مقدس ينهار أمامي... أدركت كل شيء هذه المرة... لم أكن غاضبًا لأهدأ وأعود... أدركت كل شيء بقلبي وعقلي... والمدرك لا يعود أبدًا...

وسنمر كثيرًا بأشباه الأحباء... لكن لا بد أن ننتبه جيدًا من البداية... هل سنضعهم في التجارب السيئة ونمضي... أم سيكونون فعلًا مثل قلوبنا؟! كل ما يريدونه حياة هادئة وقلبًا طيبًا يُكمل الحياة الصعبة معهم...

وحافظ دائمًا على قلبك...

فالعائد من الحب أكثر بؤسًا بكثير.. من العائد من الحرب... فالخسارة "قلب"...

كُنت أؤمن دائمًا... بأن لكل منا نصيب في اسمه... فكان اسمها "سما"... يقبع بداخله سُم... يا لغبائي!! كيف لم أنتبه لذلك!!

❋ ❋ ❋

التعريف بالكاتب

محمد عسران عطية

من مواليد الرحمانية، محافظة البحيرة، قرية درشابه.

حاصل على بكالوريوس الإعلام وفنون الاتصال، يدرس في مرحلة الماجستير جامعة المنصورة.

حاصل على دبلومة الإتيكيت والبروتوكول الدولي في المؤتمرات الإقليمية والدولية، ودبلومة الإخراج السينمائي وكتابة السيناريو ودبلومة الإعداد والتقديم التلفزيوني.

حصل على المركز الأول على مستوى الوطن العربي في التصوير الفوتوغرافي مسابقة cema Studio academy عبر وسائل التواصل الاجتماعي، حصل على المركز الثاني في مصر في التصوير الفوتوغرافي لكليات الإعلام، شارك في كثير من المسابقات والمعارض المحلية والدولية في التصوير الضوئي والفوتوغرافي ومعارض مسابقات ناشيونال جرافيك.

عمل كمصور ومحرر صحفي لمباريات النادي الأهلي والمنتخب الوطني للفريق الأول. محاضر يدرس طلاب الإعلام مواد التصوير والإضاءة العملية.